ماري كريستين شارتييه
MARIE-CHRISTINE CHARTIER

بيع من مؤلفاتها أكثر من 75,000 نسخة

مكتبة
Telegram Network

الحُبّ.. يستحق الانتظار

L'ALLÉGORIE DES TRUITES ARC-EN-CIEL

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الحب

يستحق الانتظار

«مكتبة ♔ النخبة»

ماري كريستين شارتييه

MARIE-CHRSTINE CHARTIER

الحب
يستحق الانتظار

L’ALLÉGORIE DES TRUITES ARC-EN-CIEL

رواية

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي

L'ALLÉGORIE DES TRUITES ARC-EN-CIEL

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Éditions Hurtubise Inc., Montréal, Québec H2K 3W6, Canada

Copyright © 2018 Éditions Hurtubise Inc.,

Published by Arrangement and Financial Support of SODEC, Quebec (www.sodec.gouv.qc.ca)

SODEC Québec

All rights reserved

Arabic Copyright © 2022 by Arab Scientific Publishers

الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2023 م – 1444 هـ

ردمك 978-614-01-3580-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر:

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

التوزيع في المملكة العربية السعودية

دار إقـــراء للـنـشــر

إصدار

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر

المنطقة الحرة، الشارقة

الإمارات العربية المتحدة

جوال: 585597200 971+ – داخلي: 0585597200

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونيةأو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءةأو أية وسيلة نشر أُخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

إهداء

إلى بيير، تقديراً لجميع الحكايات

التي أدّت إلى هذه الحكاية.

كام

«إذاً؟».

«لن ينجح الأمر».

«لماذا؟».

«حاجباها متقاربَان جدّاً».

«تبّاً يا ماكس».

«ماذا؟ صدّقيني، أنا لا أبالغ هنا».

«أعتقد أنّك تبحث عن الكمال، وهو ما لن تجده في هذه الحياة. لو قلت لي إنّها كانت ترتدي تنّورة بحزام، لربّما اختلفت القصّة...».

«لو كانت ترتدي تنّورة بحزام، لاختلفت القصّة بالتأكيد».

«غبيّ!».

«أعلم، وربّما لهذا السبب أيضاً لن ينجح الأمر».

كنتُ أضع الكراسي الأخيرة على الطاولات في المقهى الخالي. كانت الليلةُ جنونية بعض الشيء. فقد مرّت ثلاثة أسابيع منذ استئناف الدراسة، وبدأ طلّاب البكالوريوس يدركون أنّ الوقت قد حان للبدء جدّياً بالعمل. أذكر تماماً كيف كان الوضع في هذه الفترة. ففي مرحلة البكالوريوس، يأتي

العمل على شكل موجات. أمّا مع الماجيستير، فحجم العمل أكبر، وأكثر ثباتاً، ولكن بمجرّد أن يتعلّم المرء السباحة، تصبح المياه السفلية أقلّ إرهاقاً.

حملتُ بضعة أكواب ملقاة على المنضدة الخشبية البالية. كان المقهى جديداً نسبيّاً، على الرغم من الأثاث القديم ومجموعة من الأشياء القديمة التي تزيّن المكان. مع ذلك، فهي تحظى بشعبيّة كبيرة لدى أصحاب الأذواق العصرية. مَلء الجديد بالقديم؛ هذه المفارقة تبهرني بقدر ما تحبطني... في الواقع، جيلنا بأكمله هو الذي يبهرني بقدر ما يحبطني، ولكن لا رغبة لديّ حقّاً في الإسهاب في الحديث عن هذا الموضوع الليلة. فأنا أعمل في مقهى وليس في نادٍ ليليّ، وبالتالي، أفتقر إلى الذخيرة، ولا سيّما إلى الشجاعة السائلة – أعني هنا الشراب – لمعالجة مشاكل الأجيال في بلادنا.

مرّرتُ قطعة قماش على المنضدة الطويلة التي أدفع عليها فناجين القهوة بالحليب طوال اليوم. أنا لا أقوم بدفعها حقّاً، فنحن متّفقون على أنّنا لسنا في فيلم ويسترن من أربعينيّات القرن العشرين، بيد أنّني أودّ الاعتقاد أنّني نادلة ماهرة. بدلاً من ذلك، أنا أرسم الأزهار أو الأوراق برغوة الحليب. ويختلف التصميم حسب مزاجي، كما يعتمد على الزبون الذي يطلبه. إذ أحاول أن أخمّن ما الذي يجعله سعيداً – قلب أم ريشة؟ أمّا إذا كان أنف الزبون ملتصقاً بشاشته وهو يضع الطلبيّة، فإنّني أتعمّد إفساد التصميم. فليدفع 5.50 دولاراً في مكان آخر للحصول على صورة مثالية على إنستاغرام. على الأقلّ، أكون قد غرستُ فيه بعض الأخلاق الحميدة. فكما يقال، ليس كلّ الأبطال يرتدون العباءات.

كان ماكس في سيّارته، وكنت أسمع المحرّك يشتكي وهو يبدّل السرعة. تناهى إليّ صوت الموسيقى في الخلفية. كانت بطيئة بحسب ذوقي، وبحكم التعريف، بطيئة للغاية بحسب ذوقه هو. من جهتي، خفضتُ صوت الموسيقى في المقهى وتحدّثت معه عبر مكبّر الصوت في هاتفي. لم يكن الصوت واضحاً تماماً، إلّا أنّني أعرفه جيّداً بحيث يمكنني التقاط نبرات صوته وسط ورشة بناء. وأشعر الآن أنّه محبَط قليلاً من موعده مع تلك الفتاة. لن يعترف بذلك، لكنّني عرفت من خلال الموسيقى الهادئة للغاية التي تتصاعد من سيارته والصمت الذي ساد منذ جوابه الأخير. أخيراً، انتهى بي الأمر بسؤاله مجدّداً: «حقّاً... بصرف النظر عن حاجبيها، كيف كانت؟».

تنهّد مجيباً «لا أدري حقّاً، لم أشعر بشيء. يصعب عليّ شرح الأمر. فأنت تعرفين كيف أكون عندما لا أشعر بشيء...».

«نعم. أتعلم؟ لست واثقة من أنّني أعرف كيف تكون حتّى عندما تشعر بشيء».

«هذا أمر نادر الحدوث».

«لم يسبق لي أن قابلت شخصاً صعب الإرضاء مثلك».

«أنا أبحث عن الجودة يا كام».

«نعم، وربّما أكثر من اللازم».

«هل تلمحين إلى أنّ معاييري عالية جدّاً؟».

«كلّا، بل أخبرك أنّها غير مناسبة».

«لكنّك تعلمين أنّني أحيط نفسي فقط بقلّة مختارة من الناس. انظري لنفسك».

«عنيد».

«ربّما، لكن لا يمكنني أن أكون غبيّاً، أليس كذلك؟ أنا صديقك المقرّب لسبب وجيه، على أي حال».

«أصبتَ، ولكن لسبب واحد فقط».

«هذا، فضلاً عن ردفيَّ الفولاذيّين».

«آه، خصوصاً ردفاك، نعم».

حلّ الصمت تدريجيّاً على الطرف الآخر من الخطّ. رحت أتخيّل وجهه المتأمّل ونظرة عينيه الخضراوين في الضوء الخافت لمصابيح شوارع المدينة النائمة. في ذلك الضوء، يصبح كلّ شيء كهرمانيّاً، عيناه وشعره ولحيته. غير أنّ شعره ولحيته كهرمانيّان بالفعل، حتّى في وضح النهار. أعتقد أنّ شعره أحمر اللون، في حين يظنّ أنّني أعاني من مشاكل في النظر. في النهاية، نحن نتّفق

كلانا على أنّه، تحت بعض أشكال الإضاءة، يكون شعره أقرب إلى اللون الأحمر. هذا أقصى ما استطعت حمله على الاعتراف به، مع أنّه يقول إنّ كلامه ذاك لا يُحسب لأنّه كان تحت تأثير الشراب. أمّا أنا، فأعتقد، على عكسه، أنّنا نقول الحقيقة دائماً في هذه الحالة. فلنقبل أنّنا لن نتّفق على الأرجح. ولا بأس في ذلك، فمن الجيّد عدم الاتّفاق على كلّ شيء. إذ تقوم صداقتنا جزئيّاً على اختلافنا في الرأي حول الأمور التافهة وعلى اتّفاقنا العميق على الأمور الجوهرية.

سمعت صوت دمدمة المحرّك مجدداً. تُصدر سيّارته ضوضاء عالية عندما يُسرع. لا بدّ أنّه يسلك طريق شاريست. تخيّلتُ الطريق السريع خالياً في هذه الساعة، وماكس يقود بسرعة كبيرة. لا بدّ أنّه يعضّ أظافره، ويمرّر يداً عبر لحيته ليحكّ وجهه قليلاً. لطالما حاول إطلاق لحيته، لكنّه لم يتمكّن قطّ من تجاوز المرحلة التي يكون فيها شعر لحيته كالأشواك. فماكس يفتقر بشكل لا يصدّق إلى الإرادة لهذا النوع من الأمور.

لم أكن أمزح عندما قلت له إنّه شخص صعب الإرضاء. لا بل لم أكن أمزح على الإطلاق في الواقع. فماكس شابّ وسيم وذكيّ، إلّا أنّه يتوقّع المستحيل من النساء. ونتيجة لذلك، يتنقّل من فتاة إلى أخرى كما تبدّل الفتاة أحذيتها. حسناً، قد لا يكون هذا التشبيه الأفضل... لكن لدى التفكير في الأمر، أجده بالفعل أفضل مثال، فحياته العاطفية عبارة عن فوضى كبيرة. لا أدري إلى أيّ مدى يشغله ذلك، فمن الصعب الوصول إلى حقيقة الأمر معه عندما يتعلّق الموضوع بالعلاقات. ما أعرفه أنّ المسألة تزعجني أكثر منه. فأنا ميّالة إلى القلق، وهذا أقوى منّي.

«أنت الآن تقولين في نفسك إنّني عبارة عن كارثة عاطفية، أليس كذلك؟».

سمعتُ الابتسامة في صوته.

«كلّا، بل كنت أقول في نفسي إنّك تسبّب كوارث عاطفية، لكنّني لست متأكّدة من أنّك أنت إحداها».

«وحتّى لو كنتُ كارثة، أنا لا آبه؟».

«بالضبط».

«حسناً، كان مجرّد موعد. أنا لا آخذ هذه المسألة على محمل الجدّ بقدرك أنت».

«أوه!».

«ولكن كام، هذا ليس هجوماً. أنت عاطفية، هذا كلّ شيء».

«أنا لست عاطفية، فالجميع يعتقدون أنّني لئيمة».

«لكنّ إحدى الصفتين لا تمنع الأخرى».

«نقطة جيّدة».

«على أيّ حال، يعتقدون أنّك لئيمة في أوّل لقاءَين معك. بعد ذلك، يكتشفون أنّ قلبك من ذهب، ومن تلك اللحظة فصاعداً ينتهي الأمر».

نظرتُ إلى الأعلى بسأم. قلب من ذهب، وقلّة مختارة... أنا أعرف ماكس كما لو كان قماشاً نسجته بيديّ، ولا أصدّق أنّه لا يعرف كم أفهمه.

«ماذا تريد؟».

«ماذا؟».

كان يلعب دور البريء، حتّى لو أنّه يشكّ في أنّ ذلك سينجح معي.

«لا أعتقد أنّك تتّصل بي لتخبرني عن حاجبين متقاربَين؟».

«نعم...».

«إذاً...؟».

«غداً ذكرى ميلاد أبي».

«لقد عرفت، مااااكس».

«أرجوووك. ستكونين أفضل صديقة في الكون كلّه».

«أنا أساساً أفضل صديقة في الكون كلّه».

«حسناً، لديك سمعة عليك المحافظة عليها».

كانت عيناه الكهرمانيتان الكبيرتان تتوسّلان إليّ، على الرغم من عدم وجوده أمامي. كنت أراهما خلف جفنيّ المغلقَين. عرفتُ أنّ هذا اليوم آتٍ لا محالة، لا بل شعرت أنّه بدأ يتأخّر. فكلّ عام، لم يكن ثمّة موعد ثابت لذكرى ميلاد والد ماكس. وكلّ عام، أرافقه إلى الحفل، ونضطرّ لتحمّل ساعتين أو ثلاث طوال بصحبة عائلته، قبل أن نذهب لتمضية بقيّة السهرة في مقهى تحت شقّتي.

«إنّه تقليد يا كام».

«ربّما حان الوقت لإنشاء بعض التقاليد الجديدة».

«لكنّ التقاليد تصبح تقاليد لأنّها تدوم طويلاً».

«أنت عنيد».

«وأنت تحبّين ذلك».

تنهّدتُ بصوت عالٍ، عالٍ بما فيه الكفاية ليثقب طبلة أذنه، على ما آمل.

«سيحدّثني والدك مجدّداً عن العدّ التنازلي لمبيضيّ. فهو لا يفوّت أيّ فرصة، وهذا مثير للاضطراب بعض الشيء».

«أعرف، فعندما يتحدّث في الطبّ، ينسى نفسه».

«بالنسبة إلى رجل مستقيم إلى هذا الحدّ، كنت أظنّ أنّه يتمتّع بمزيد من ضبط النفس».

«نعم... حسناً، اسمعي، إذا أقدم على ذلك، فسوف أحدّثه عن بروستاتي لتغيير الموضوع، أعدك».

«إيّاك».

«هل وافقتِ إذاً؟».

رميت الخرقة في الحوض. أشعر أنّه ينتظر إجابتي، مع أنّه يعلم أساساً أنّه فاز. لم يسعني سوى الابتسام.

«لم أرفض».

«هذا يناسبني، أراك غداً. أحبّك».

«حسناً، أنا أيضاً».

هذا أمر آخر يجعل من ماكس صديقي المقرّب، إلى جانب مزاياه الأخرى: ليس من السهل أن يتعلّق بأحدهم، ولكن عندما يحبّ، فإنّه يحرص على إخبارنا بذلك، طوال الوقت.

ماكس

يبلغ والدي من العمر 53 عاماً. هذا ما أظنّه، لكنّني لست واثقاً، إذ توقّفتُ عن العدّ. أو بالأحرى، توقّف هو عن العدّ وأجبرنا على فعل الشيء نفسه. والدي بارع في فرض إرادته على الناس من حوله. ولهذا السبب، يكسب كثيراً من المال، ويعيش في منزل فسيح في حيّ حافل بأثرياء مثله، ويحظى بالاحترام في مكان عمله، في حين أنّ عائلته تكرهه.

حسناً، ربّما كانت كلمة تكرهه قويّة بعض الشيء. وقد تقول كام إنّني أبالغ، وإنّني لا أكره والدي حقّاً، بل أعاني ببساطة من مشاكل في علاقتي معه، مشاكل دفنتها عميقاً، ويتعيّن عليّ أن أتعلّم كيف أحلّها يوماً. حقّاً، أنا أحبّ تلك المرأة، لكنّ منطقها السيكولوجي الذي لا يساوي أكثر من خمسة سنتات يثير أعصابي. مع ذلك، لا بدّ أنّها محقّة إلى حدّ ما.

منذ طفولتي، يدعو أبي كلّ عام في ذكرى ميلاده العائلة بأسرها لتناول الغداء. في الماضي، كنت أتطلّع إلى ذلك اليوم، لأنّني سألتقي فيه بأبناء عمومتي، ولأنّ عمّي تيد سيثمل قليلاً في نهاية الوجبة ويقول أموراً لا ينبغي عليه قولها، كما كنت أتحمّس خصّوصاً لأنّ جدّتي ستكون هناك، جانيت، التي لا تردّ على اسم آخر غير تيتا. تيتا، مع حقيبتها المليئة بسكاكر النعناع (والتي تحوّر أسماء الأشياء). تصل تيتا مع سكاكرها وسخريتها التي لم أكن أفهمها تماماً، غير أنّها كانت موهوبة في إثارة غضب والدي. صحيح أنّ والدي كان دائماً سريع الغضب، لكنّني كنت أحبّ أن يغضب من شخص آخر غيري، لا سيّما وأنّ تيتا كانت تتقن فنّ تحويل غضبه إلى مثار سخرية. هذه على ما

أظنّ إحدى الأشياء التي كانت تعجبني فيها. فحتىّ هذا اليوم، أبحث عن الطريقة الصحيحة للضحك على مزاج والدي الذي نادراً ما يكون حسناً.

مع ذلك، أنا لا أستحقّ كثيراً من الشفقة. فأنا أعلم جيّداً أنّني في العمق ابن أسرة ثرية، ولد وفي فمه ملعقة من فضّة، وورقة من ذهب يمسح بها ردفيه الفولاذيَين. (صحيح أنّني أمزح مع كام، ولكنّني أتمتّع بردفين جميلَين حقّاً.) ولو وضعنا المزاح جانباً، والدي رجل نذل بالفعل، ولكن يجب وضع ذلك في المنظور الصحيح. فهو لم يضربني يوماً، كما أنّه لم يحرمني من الميراث بعد، حتّى عندما أمسك بي وأنا أدخّن الممنوعات في الطابق السفلي، وعندما أتلفتُ إحدى ستراته من ماركة هوغو بوس يوم قفزت بكامل ثيابي في حمّام السباحة لأُضحك أصدقائي. وهذان مجرّد مثالان من بين عديد من الأمثلة الأخرى. كلاّ، والدي ليس الوحيد الذي يرتكب أموراً يلام عليها، هذا واضح (حتّى لو لم أكن على استعداد للاعتراف له بذلك أبداً). نرى نمطاً يظهر هنا: لا أحبّ أن أعترف أنّني مخطئ... مثله تماماً. لا أحد يحبّ ذلك، لكنّ عزّة نفسي هي السبب. ولا بدّ أن تكون متلازمة الطفل الوحيد، ابن الأسرة الثرية، هي السبب. عليّ أن أسأل كام، فلا بدّ من وجود نظرية نفسية في هذا الشأن. كان الغداء عند الساعة الحادية عشرة وقد تأخّرت أساساً. هذا جزء من شخصيّتي. فقد جرّبت كلّ السبل لعلاج نفسي من هذا العيب، كأن أقنع نفسي أنّه عليّ الوصول قبل الموعد بعشرين دقيقة، أو أن أضبط المنبّهات لترنّ كلّ دقيقتين، أو أن أقدّم الساعة... ولكن لا شيء نجح. كما لو أنّ عقلي يعرف أنّ هذا ليس صحيحاً. في الواقع، ليس الأمر كما لو أنّ عقلي يعرف... بل هو يعرف بالفعل. لديّ مشاكل، هذا صحيح، لكنّني لست غبياً تماماً، وأعتقد في أعماقي أنّني لست بارعاً في الكذب على نفسي. ومع أنّ هذه ناحية سلبية في ما يتعلّق بالتأخير المستمرّ، لكنّها إيجابية في الحياة بشكل عامّ.

أرسلت رسالة نصّية إلى كام وأنا جالس خلف عجلة القيادة.

ماكس: أنا على وشك الوصول.

كام: أنت كاذب، لم تنطلق بعد.

ماكس

أنا أعيش على بعد ثلاث دقائق بالسيّارة من منزل كام، وهذا أمر عمليّ. عادة ما أذهب إليها سيراً على الأقدام. فأنا أعرف الطريق عن ظهر قلب، ويمكنني بالتأكيد اجتياز المسافة مغمضَ العينين. سأبدو غريباً بعض الشيء، على الرغم من أنّنا نعيش في الجزء السفلي من المدينة، في حيّ يشهد يوميّاً كمّاً لا بأس به من الأحداث الغريبة أكثر من شابّ يتجوّل مغمض العينين.

كانت تنتظرني عند ناصية الشارع، وهذا ما وفّر عليّ البحث عن موقف للسيّارة، كما أنّه من الأسرع الصعود إلى المطعم من هناك. هبّت رياح سبتمبر الباردة داخل السيارة عندما فتحَت الباب. كانت ترتدي معطفاً خريفياً، على الرغم من أنّ الجو لم يبرد إلى هذا الحدّ بعد، غير أنّ الخريف موسمها المفضّل، ولا بدّ أنها كانت تتطلّع إلى ارتدائه.

«ستشعرين بالحرّ بهذا المعطف».

«صباح النور».

«صباح الخير، ستشعرين بالحرّ بهذا المعطف».

«هذا سيقيني من برد قلب والدك الجليدي».

«تبّاً، هذا صحيح. كان عليّ أن أرتدي بدلة الثلج أنا أيضاً».

«بصراحة، توقّعت أن تفكّر في الأمر».

ضحكَت وهي تثني ساقيها إلى بطنها. كانت تجلس دائماً في وضعيات مستحيلة، سواء في السيّارة أو على الأرض، أو حتّى على الأريكة، وتوجّه رأسها إلى الأسفل لمشاهدة التلفاز. أحبّ مقارنتها بقرد صغير، وتحبّ أن تتظاهر وكأنّ هذا التشبيه يهينها.

لاحظتُ أنّها بذلت جهداً، إذ استخدمت مساحيق التجميل، وفردت شعرها، وتحت معطفها شبه المفتوح، ارتدت قميصاً كحلياً أبرز لون عينيها. أنا لا ألاحظ حقّاً هذا النوع من الأمور عادةً. أتحدّث بالطبع عن قميصها، لأنّ عينيها جميلتان دائماً. أسرّت لي ذات مرّة أنّه القميص الذي ترتديه في الموعد الأوّل، غير أنّني لم أنل نصيباً من هذا القميص، وأحبّ تذكيرها بذلك. وتحبّ تذكيري أنّه لم يكن لنا موعد أوّل. تجادلنا طويلاً بعناد حول مواصفات الموعد الأوّل قبل أن نتقبّل، مثل ريتشل وروس في الأصدقاء، في حلقة الانفصال الشهيرة، أنّنا لن نتّفق أبداً على هذه المسألة.

«أنت جميلة».

«هذا ليس من أجلك».

قالت جملتها مرفقة بغمزة عين، غير أنّني أعلم جيّداً أنّها لم تبذل كلّ هذا الجهد من أجلي. إنّه تأثير والدي. فكما هو معلوم، كلّما كان الشخص أكثر لؤماً، ازدادت حاجة الناس لنيل استحسانه. هذا بالتأكيد لأنّه من الصعب الحصول عليه. أردت إخبار كام أنّها ليست مضطرّة لذلك، وأنّ والدي لا يستحقّ، لكنّها تعرف ذلك أساساً، لهذا لزمتُ الصمت. على المرء أن يتعلّم كيف يختار معاركه. واستيعاب هذا المفهوم أصعب عليها منّي، ربّما لأنّها فتاة وأنا شابّ؟ لا أقول هذا من باب التحيّز الجنسي، لكنّنا لا نفكّر بالطريقة نفسها أحياناً.

سألَتني كام بقلق زائف: «هل حاجباي متقاربَان جدّاً؟».

«إنّهما متناسقان».

«تقصد أنّ المسافة مثالية».

وضعت إصبعين على جبينها بين حاجبيها، وانفجرت ضاحكة. تضحك كام بصوت عالٍ طوال الوقت، وهذا أمر محرج للغاية. فهي تحارب خجلها عن طريق تحريك الهواء والتصرّف بقسوة مع الجميع. في بعض الأحيان، ألفت نظرها إلى أنّ عادتها في دفع الناس بعيداً عنها هي

مجرّد آليّة دفاعية سيتعيّن عليها التخلّص منها يوماً ما. فتجيبني أنّ هذه وظيفتها هي، المستشارة النفسية التي لا تساوي أكثر من خمسة قروش، وأنّه لا ينبغي لي التدخّل في شؤونها.

سلكتُ الطريق الممتدّ على ساحل أبراهام. كان ثمّة عدد لا بأس به من الناس على الطريق بالنسبة إلى صباح يوم أحد، عدد كبير من الناس الذاهبين لتناول الغداء مع عائلاتهم، وهم بالتأكيد أكثر سعادة منّي بكثير في هذه اللحظة. قامت كام بتوصيل هاتفها بكابل مكبّر الصوت الذي اشتريته لسيّارتي، لأنّها لا تحتمل الاستماع إلى المذياع، ثمّ شغّلت موسيقى هادئة، لفرقة مستقلّة، عصرية جدّاً بالنسبة إلى ذوقي. في الواقع، أذواقها الموسيقية موضع جدل، ولكن بما أنّها ترافقني هذا الصباح، فقد امتنعت عن التعليق على الموسيقى. إذ كما سبق وقلت، على المرء أن يعرف كيف يختار معاركه. نظرت إليّ كام عابسة: «ألن تعترض؟».

«لماذا؟».

«شغّلتُ أغنية لفرقة لومينيرز ولم تشتكِ».

«لكنّهم ليسوا بهذا السوء».

لم تجبني بشيء. ألقيتُ عليها نظرة جانبية، فرأيت تجعيدة بين حاجبيها المتباعدَين بالقدر اللازم.

«كما تعلم يا ماكس إنّها مجرّد وجبة غداء».

«أنا أعرف ذلك جيّداً».

«ما المشكلة إذاً؟».

«لا مشكلة».

«ماكس...».

حاولت التركيز على الطريق وليس على نوع الحمض المعدي الذي يرتفع في حلقي كلّما فكّرت بوالدي، ببدلاته شديدة السواد، وقمصانه التي لا تشوبها ثنية واحدة، وقصّة شعره القصير

المسرّح بعناية. أبي زائد في كلّ شيء، زائد في كلّ ما لا أملكه. إنّه زائد عليّ، وأنا... أنا لست كافياً بالنسبة إليه. وهنا بالتأكيد تكمن المشكلة، في الأساس.

«إنّها مجرّد وجبة غداء، سيكون كلّ شيء على ما يرام».

عرفتُ أنّني لم أبدُ مقنعاً، لكنّها لم تضِف شيئاً. قد يكون والدي زائداً عليّ وقد لا أكون كافياً؛ أمّا كام فهي تعرف دائماً كيف تكون بالقدر اللازم.

كام

«سنأخذ اثنين آخرين».

وضعت ماتيلد أمامنا بهدوء كأسين جديدين. كان الكأسَ الثالث بالنسبة إلى كلينا. بدأ الضوء المنبعث من المقهى يتراقص من تلقاء نفسه أمام عينيّ، اللتين أثقلهما النعاس. لم يتأخّر الوقت، فقد كانت الساعة الخامسة بالكاد، ولكن هكذا ينتهي بنا الأمر دائماً بعد وجبة الفطور مع أسرة ماكس. كان هذا هو التقليد الحقيقي، ليس الفطور بحدّ ذاته، بل الجلسة الملحمية التي تتبعه. إذ يُكثر ماكس من الشراب لينسى أنّ أسرته، وأقصد هنا والده، لا توافق على اختياره للعمل، والأصدقاء، والملابس، والموسيقى، وقصّة الشعر، باختصار خياراته الحياتية ككلّ. أمّا أنا، فأرافقه لأنّ الصديقة الحقيقية لا تترك أعزّ أصدقائها يشرب بمفرده. ولأنّه من الصعب رؤية شخص ما يفرغ كلّ طاقته السلبية في وجه شخص نحبّه طوال ساعات من دون أن تتمكّن من الردّ.

وكزتُه بخفّة قائلة: «لم يكن الأمر بهذا السوء».

نظر إليّ بارتياب من فوق كأسه قبل أن يرتشف رشفة منه. علقت الرغوة فوق شفته العليا بينما تابعتُ قائلة: «حتّى إنّه لم يأتِ على ذكر مبايضي».

«أعلم، وقد شعرتُ بشيء من الخيبة، إذ لم تتح لي الفرصة للتحدّث عن بروستاتي».

«ربّما لو فعلتَ، لقطع علاقته بك نهائياً».

«لماذا تظنّين إذاً أنّني اقترحت عليك ذلك؟».

«حبّك للغير؟».

«أنت تعرفينني أكثر من ذلك يا جميلتي».

«صحيح».

يحبّ ماكس أن يستخدم ورقة الابن الوحيد الأناني، في حين أنّه في العمق، شابّ طيّب حقّاً. غير أنّه لا يحبّ إظهار ذلك لأنّه دليل ضعف برأيه. في النهاية، هذا ما أظنّه. وكذلك لأنّه يكشف عن رقّة تتعارض مع صورته كشابّ جدّي ذي قلب من حجر.

«أتعلم، أنا أفهم إلى حدّ ما لماذا تستمرّ بالذهاب، من أجل الأسرة وما إلى ذلك. لكنّ ما لا أفهمه هو سبب استمرارك بالسماح لكلّ ذلك بإزعاجك».

أجاب بسأم:

«ألن يزعجك أن يعتقد والدك أنّك فاشلة؟ والأسوأ من ذلك، ألّا يحاول أن يفهم كيف تختلف رؤيته للفشل عن رؤيتك؟».

«بلى، لكنّني لا أكره والدي».

«صحيح، ولكن هذا لأنّ والدك رجل لا مثيل له».

ضحكنا كلانا. يعيش والدي وماكس رومانسية أخوية لا مثيل لها في تاريخ الرومانسيات الأخوية، نسجها حبّهما للصيد، وفريق نيو إنغلاند باتريوتس، وشوّاية باربكيو لوي فرانسوا ماركوت، وربّما أنا بالتأكيد. ولطالما ردّد لي والدي أنّه سيكون أسعد أب في العالم عندما أدرك أخيراً أنّ ماكس حبُّ حياتي. عندئذٍ، أحاول أن أجعله يفهم أنّني أحمي علاقتهما بهذه الطريقة. ففي الواقع، بعدم خروجي مع ماكس أنا لا أجازف بأن يحطِّم قلبي. وأعلم أنّه ما من فوز لفريق باتريوتس أو صيد ثمين من سمك السلمون المرقّط يكفيان ليغفر والدي لرجل سبّب لي الألم.

«والدي بالفعل رجل لا مثيل له».

«بالفعل. ولكن لينجب فتاة مثلك، عليه أن يكون كذلك».

تعلّق نظره بعينيّ، وبدا صافياً على نحو غريب. لاحظت البريق الذهبي في خضرة عينيه. بالطبع، البريق الذهبي موجود دائم، ولكنّه بدا لي هذه الليلة أنّه يلمع أكثر بقليل من المعتاد. سرت قشعريرة في جسدي، وأحسست بدفء في أحشائي وعضلاتي. بقعة ساخنة مألوفة، ولكنّها مختلفة. لا أشعر بذلك عادة عندما أنظر إلى ماكس، أو ربّما أشعر بذلك دائماً في أعماقي، وأنجح عموماً في التركيز على شيء آخر. ولديّ سنوات من الخبرة، في النهاية.

«نحن ننزلق، صحيح؟».

همس بذلك بصوت خافت، بحيث فوجئت بسماعه.

«ننزلق؟».

«إلى أرض خطرة».

«عَمَّ تتحدّث؟».

«ألا تشعرين بذلك؟ أعلم أنّك تشعرين بذلك».

وضع يده على بطني، تحت سرّتي مباشرة. نعم، هناك بالضبط.

«توقّف من فضلك».

بدا صوتي خافتاً في أذنيّ. بحثت عيناه عن عينيّ، لكنّني تجنّبتهما.

«لماذا؟».

«أنت تعرف لماذا».

«أخبريني فقط أنّك تشعرين بذلك».

«وماذا سيتغيّر؟».

أخذ جرعة من الشراب، ثمّ مرّر يده عبر لحيته، ما منحني الوقت لأتنفّس قليلاً، فقط بما فيه الكفاية لتجنّب الانفجار، أو الانهيار، لا أدري.

«لديّ انطباع أنّني لا أفعل شيئاً بالطريقة الصحيحة، واليوم، أكثر من المعتاد. أريد... أريد أن أنجح. وأعتقد أنّ هذا، هذا قد ينجح. هل يبدو لك هذا منطقياً؟».

«نعم، لكن لا».

«نعم، لكن لا؟».

«نعم، هذا منطقي، لكن لا، إنّها فكرة سيّئة. ألا تعرف أنّه ليس من الحكمة اتّخاذ قرارات بناء على النزوات التي تعقب الصدمات؟».

«لن أذهب إلى حدّ القول إنّني تعرّضت لصدمة».

خيّم الصمت علينا مجدّداً، وتراقصت أضواء المقهى على وجهه. كانت بشرته مزيّنة بالنمش الذي يظهر ويختفي مع تعاقب الفصول. ظهر في الصيف الأخير، وقد بدأ يتلاشى. قريباً، لن يتبقَّ منه سوى ذكريات، تماماً مثل هذه المحادثة. لم تكن تلك المرّة الأولى التي نرقص فيها أنا وماكس على الحبال. فمنذ أن عرفنا بعضنا البعض، حدث ذلك كثيراً. وأصبحنا خبيرَين في المشي على الحبال. وفي كلّ مرّة، ننجح في استعادة توازننا ونتجنّب السقوط، وأعتقد أنّ هذا هو مصدر قوّة صداقتنا. قد يكون هذا خطأً كبيراً أيضاً، لكنّني لست مستعدّة على الإطلاق للتضحية بكلّ ما هو قويّ في علاقتنا من أجل برعم سعادة افتراضية. فأنا سعيدة مع ماكس كصديق في حياتي. ربّما أكون أكثر سعادة أيضاً إذا أصبح ماكس حبّ حياتي، لكن هل ثمّة وجود حقّاً لحبّ الحياة؟ في الواقع، لا أريد المخاطرة بكلّ شيء لمعرفة الإجابة. فبإمكاني العيش بالقليل، في حين أنّني لن أتمكّن من البقاء من دون شيء على الإطلاق.

ارتشف ماكس رشفة أخرى، ثمّ مال نحوي.

«حسناً يا كام، سأتوقّف، استرخي».

ابتسم ابتسامة حزينة بعض الشيء، ثمّ وضع يده على يدي. كفّا ماكس كبيرتان بحجم الكون. في بعض الأحيان، عندما لا تسير أموري على ما يرام، أحبّ أن أتخيّل أنّني أتكوّر فيهما وأنسى بقيّة العالم. وهذا أمر لا أحدّثه عنه. فثمّة أشياء من الأفضل أن يحتفظ بها المرء لنفسه.

ماكس

في المرّة الأولى التي رأيت فيها كام، ظننت لمدّة دقيقتين طويلتين أنّني التقيت للتوّ بفتاة أحلامي. كانت ليلة ثلاثاء. أتذكّر ذلك لأنّه كان ثمّة عرض كأسين للشخص الواحد على الشراب حتّى الساعة السابعة في المطعم الواقع على بعد شارعين من منزلي، ولهذا السبب ذهبنا إلى هناك أنا وفيكتور من أجل موعدنا المزدوج. نادراً ما كان فيكتور، صديقي المقرّب، يواعد فتيات، أو بالأحرى، كان يواعد كثيراً من الفتيات، ولكن نادراً ما يواعد الفتاة نفسها مجدّداً. لم أكن أنا الآخر نموذجاً للعلاقات الأحاديّة، على الرغم من أنّني كنت أخرج مع فلورانس، التي كانت حبيبتي في ذلك الوقت منذ بضعة أشهر. وللمرّة الأولى كنت أنا وفيكتور في علاقتين شبه مستقرّتين في الوقت نفسه. وكان يفترض بتلك الأمسية أن تكون حدثاً، ولكن ليس للأسباب التي كنّا نظنّ.

اعتقدتُ أنّ كام فتاة أحلامي خلال دقيقتين، لا أكثر، لأنّه الوقت الذي استغرقه فيكتور، حبيبها، ليركن السيّارة. وكان هذا أيضاً هو الوقت الذي استغرقته حبيبتي للعودة من الحمّام. كان ذاك موعدنا المزدوج. مفارقة مضحكة، أليس كذلك؟

لم نكن أنا وفيكتور نُري بعضنا صوراً لصديقاتنا. صحيح أنّ فايسبوك كان موجوداً، لكنّني لم أكن أستخدمه كثيراً، تماماً كما هو حالي اليوم أساساً، ولأنّني لم أكن أكترث لرؤية حبيبة صديقي الجديدة. كان يبدو معجباً بها ولم يرَ فتيات أخريات خلال ذلك الوقت، وكان ذلك بحد ذاته مثيراً للاهتمام.

دخلَت المطعم بشعرها المبلّل بفعل الأمطار الغزيرة، ووجهها النظيف، لأنّها من نوع الفتيات اللواتي لا يستخدمن حقّاً مساحيق التجميل، ممّا يوفّر عليها كثيراً من الضرر عندما تمطر.

ما زالت تضحك، بعد أربع سنوات، عندما أحدّثها عن وجهها النظيف. كانت تخبرني باستمرار أنّها أسوأ مجاملة على وجه الأرض. فهي لا تفهم أنّ الأمر بالنسبة إليّ كان أشبه بنسمة الهواء النقيّ في سماء يوليو الرطبة. ولم يكن ذلك فقط بسبب وجهها الخالي من التصنّع، بل أيضاً بسبب حيويّتها وجرأتها. هي لا تفهم ذلك لأنّني لم أشرحه لها قطّ، بالتأكيد. لا أعرف. لا أحبّ أن أتساءل ماذا كان سيحدث لو أنّني تحلّيت بالشجاعة في بداية علاقتي بكام.

في تلك الأمسية، بالكاد تسنّى لي الوقت لأجدها جميلة قبل أن أدرك من تكون، أمّا هي، فقد تعرّفت عليّ على الفور. من الواضح أنّها، من جانبها، سبق وتجسّست عليّ على الإنترنت. اقتربَت وجلسَت على المقعد أمامي،

ثمّ قالت وهي تخلع معطفها المبلّل: «تبّاً».

«هل تمطر في الخارج؟».

نظرت إليّ وكأنّها تنظر إلى شخص تعرفه بالفعل، وابتسمَت، ولكن نصف ابتسامة فقط. فانتابتني رغبة في معرفة أسرار نصف فمها الذي لم يبتسم.

«كلّا، بل كان فيكتور يبصق عليّ طوال الوقت أثناء القيادة».

«ولم يعجبك ذلك؟».

«بلى، أعجبني، لكن ما بعد ذلك هو الأصعب».

«أخبرني أيضاً أنّك فتاة مميّزة».

«هذا ولم ير شيئاً بعد، تخيّل».

«تبّاً».

لا بدّ أنّ تعبير وجهي كان مضحكاً، لأنّها أضافت: «ماذا؟ ظننت أنّك تحبّ ذلك، أي المميّزات؟».

«من قال إنّني أحبّ ذلك؟».

«أنت لا تبدو شابّاً سعيداً على نحو خاصّ».

«ربّما أنا مجرّد شابّ غيور؟».

لم تجبني، لكنّ النصف الآخر من فمها ابتسم، وحدثت الشرارة. لا يمكنني أن أشرح ذلك. فنحن نلتقي بمئات الأشخاص كلّ أسبوع، وكلّ يوم، في الشارع، وفي المتجر، وفي المكتب، وحول آلة القهوة. كثير من الأشخاص والشخصيّات المختلفة، لكلّ منها قيمته واهتماماته، لكن لا يحدث سوى بضع مرّات في الحياة أن نلتقي بشخص محدّد، وفجأة، يتعرّف قلبنا وروحنا عليه على الفور. في ذلك المساء، وفي غضون دقيقتين، تعرّف شيء ما بداخلي على كام، وقلت في نفسي، «آه، تلك هي الفتاة التي كنت أنتظرها».

وهذا غريب أيضاً، أعني أنّه مؤسف، لأنّه بعد أربع سنوات، لم تعد فلورانس في الصورة، ولا صديقي فيكتور أيضاً. وحدها كام بقيت، حتّى لو كنت غالباً ما أشعر أنّه على الرغم من كلّ الوقت الذي قضيناه معاً، فقد فاتنا شيء ما في تلك الدقائق الأولى الثمينة.

كام

«لديك تقارب جديد مع جوردان».

قرأت الإشعار على هاتفي، ولم أشعر حتّى بالرغبة في رؤية من يكون جوردان هذا. أنا لا أحبّ تطبيق تندر. إذ يعطيني انطباعاً بأنّني أتصفّح كتالوغاً، أو أنّني أمام بوفيه من الوجوه. وبعد جلسة من التصفّح، أشعر تماماً كما لو كنت أمام بوفيه صيني: شيء من الغثيان والثقل والاشمئزاز من نفسي. أمّا أكثر ما أجده مؤسفاً في هذا التطبيق فهو احتمال وجود كثير من الرجال الذين يمكن أن أمنحهم فرصة في الحياة الواقعية. لربّما اختلف الأمر لو أتيح لأحدهم فرصة التقرّب منّي، وشعرت بحيويته، واكتشفت كيف يتفاعل جسدي مع جسده، وعرفت ما إذا كانت ابتسامته تضيء عينيه بطريقة غير متوقّعة، وما إذا كان يمرّر يده في شعره عندما يكون متوتّراً، أو يضحك بطريقة تجعلني أرغب في الضحك أنا أيضاً. كلّ تلك الأشياء الصغيرة التي تتجاوز بضع صور.

علاوة على ذلك، من السهل على المرء أن يروّج لنفسه بطريقة معيّنة عبر الإنترنت. لذا، لا يمكننا دائماً الوثوق بالانطباع الأوّل، فالصبّار جميل، لكنّه مؤلم عندما نحتكّ به. لذا، أرى أنّه من الصعب أن نعرف ما إذا كان أحدهم مثيراً للاهتمام أم لا أن لم يكن لدينا ما نرتكز عليه. على تندر، عندما تكون المستخدِمة فتاةً، فإنّها تعرض عموماً صورة لوجهها، غالباً ما تكون داخل سيّارة وتضع نظّارة شمسية وقبّعة موجّهة إلى الخلف. ونجد هناك شبّاناً يحبّون «الهواء الطلق، والطعام الجيّد، والضحك». الضحك. وهل هذا من الأمور التي يجب ذكرها؟ هل ثمّة حقّاً أشخاص لا يحبّون الضحك؟ أرغب في بعض الأحيان أن أكتب في ملفّي الشخصي أنّني أبحث عن رجل كسول يأكل

الطعام الجاهز ولا يحبّ الضحك، لأنّه يعرف مدى قسوة الحياة. ربّما لن ينتهي بي الأمر عندئذٍ مع شخص مرح، لكنّه يتمتّع على الأقلّ بميزة الصدق.

«لديك مرشّح! اذهبي وانظري من يكون».

انحنت فاليري لتأخذ هاتفي، لكنّني كنت أسرع منها، فاختطفته ووضعته في حضني بعيداً عن متناولها.

«لست متأكّدة من أنّني أودّ ذلك».

كنت جالسة إلى طاولة في المقهى الذي أعمل فيه، بصحبة فاليري، إحدى أعزّ صديقاتي. أنا أمضي حياتي هنا. فعندما لا أعمل، أدرس؛ وعندما لا أدرس، أعمل. وبين فنجانين متوسّطين إلى ثلاثة من القهوة بالحليب الخالي من الدسم ومتوسّطة الحلاوة، يمرّ أصدقائي أحياناً لدعمي في غيابي عن الحياة، الذي أخفيه وراء حبّ مزيّف للقهوة الفاخرة. في الأساس، صحيح أنّني هيبستر إلى حدّ ما، لكنّ عالماً كاملاً يفصل بين فكرتنا عن حياة الباريستا والواقع، الذي يقوم على تقديم القهوة بالحليب طوال النهار للطلّاب المتعثّرين.

«أنت محبَطة حقّاً اليوم، هل من خطب؟».

نظرت إلى فاليري، فوجدتها تتأمّلني بعينيها الكبيرتين الداكنتين، بتعبير يجمع بين القلق والفضول، من فوق نظّارة راي بان السوداء، ذات الطراز الكلاسيكي. أحاطت خصلاتُ شعرها الداكنة بوجهها الجميل. وبشعري الكستنائي الفاتح وعينيّ الزرقاوين، بدوت نقيضتها تماماً. هذا ناهيك عن أنّ شخصيّتينا مختلفتان تماماً بقدر اختلافنا الجسدي.

«لا، ما علاقة ذلك؟ أنت تعلمين أنّني لا أحبّ تندر».

في الواقع، قمت بتثبيت التطبيق إرضاءً لها، لأنّها بعد نحو ثماني سنوات وغبار من حياة المساكنة، فقدَت بحكم التعريف الحقّ في إضافتها إلى الكتالوغ. لكن كما يقال، مجرّد اتّباع نظام حمية غذائية لا يمنع من تصفّح قائمة الطعام. لديّ نظرية مفادها أنّ الأشخاص المرتبطين يميلون إلى تصفّح تندر أكثر من غيرهم. فهم يحبّون دخول التطبيق سرّاً، لمجرّد التسلية، مع علمهم أنّ ذلك لا يُلزِمهم بشيء وأنّهم يستطيعون الاستلقاء بجانب شريك حياتهم براحة بال في المساء، من دون

التفكير أنّهم كانوا يتسوّقون في مكان آخر. تكتفي فاليري من جهتها بعيش هذه المتعة بالوكالة، عبر محاولاتها المستمرّة لمواءمتي مع أحد وجوه البوفيه.

علّقَت وهي تعبث بطرف معطفها: «لم أكن أفكّر في تندر، بل أتحدّث بشكل عامّ».

«أنا بخير، لكنّني متعبة».

«هل أكثرتِ من الشراب في عطلة الأسبوع؟».

«قليلاً، فقد صادفَت ذكرى ميلاد والد ماكس».

«إذاً؟».

«ماكس يكره أباه».

«لست متأكّدة من أنّني أفهم...».

«لا يهمّ. ذهبت معه إلى حفل الغداء وشربنا بعد ذلك. كان عليّ أن أدعمه».

رمقتني بإحدى نظراتها الثاقبة، نظرة فاليري، تلك التي تفهم كلّ شيء، أو على الأقلّ، التطفّلية بما فيه الكفاية، بحيث تثبّت المرء في مكانه، حتّى لو لم تفهم، إلى أن يعترف بجريمة لم يرتكبها. فاليري محاسِبة، لكنّني كثيراً ما أردّد لها أنّه كان بإمكانها أن تنجح في مجال الاستخبارات السرّية، لو كانت أكثر ميلاً بقليل إلى المغامرة. حاولتُ الهرب من نظراتها، ولكن عبثاً. فسألتُها أخيراً: «ماذا؟».

«أهو الشراب مع ماكس، أم ماكس وحده الذي وضعك في هذه الحالة؟».

«فاليري...».

«أعلم، أنا لا أقول ذلك للمرّة الأولى، ولكن...».

«فاليري...».

«غريبةٌ علاقتكما».

«أنت الغريبة».

«حسناً، أيّتها الناضجة».

كوّرتُ منشفتي ورميتُها بها، فضحكنا قليلاً، ليس بصوت عالٍ جدّاً، لكي لا نزعج الطلّاب الآخرين من حولنا، ولكنّ ذلك أراحني على الرغم من كلّ شيء. لا تفهم فاليري، شأنها شأن غالبية المقرّبين منّي – أبي وأختي – العلاقة التي تجمعني بماكس. من الصعب شرح ذلك، لا سيّما لشخص مثل فاليري، لأنّها فتاة تملك بالأساس منزلاً، مع حبيبها الذي يهتمّ بالشواء في حفلات الباربكيو الصيفية، والتي تحلم بأسرة وبأطفال يركضون في الأرجاء، وببقع الجزر المهروس على ملابس النوم الصغيرة. كلّ هذه الأشياء التي تجعلني أشعر بالضيق لمجرّد التفكير فيها، وتدفعني إلى الهرب، من دون النظر إلى الوراء البتّة. فأنا أملك روح رحّالة، أخشى أن أتعلّق، تماماً كالبحّار. أمّا فاليري، فهي المرساة. نحن لا نفهم بعضنا البعض، حتّى لو كنّا نحبّ بعضنا كثيراً، ونتقبّل بعضنا، وهذا هو الأهمّ. ليس لدينا الخيار حقّاً، أو بالأحرى نحن نختار ذلك، على ما أعتقد، وهنا يكمن الفرق بالتأكيد. إنّها الطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها شرح صداقتنا، المستمرّة منذ بداية دراستنا الجامعية، خلال الحصّة الوحيدة التي أمضتها في صفّ علم النفس، قبل أن تدرك أنّها تفهم الأعداد أكثر من الناس.

بالعودة إلى ماكس، فاليري تعرف أنّني أحبّه، على الرغم من عجزها عن فهم كيفيّة اقتصار هذا الحبّ على علاقة الصداقة. فثمّة وصلة لا تحدث في دماغها، عندما تفكّر فينا. الأمر أشبه بمحاولة شرح اللون الأحمر لشخص أعمى. فبحسب فاليري، ليس من الممكن لفتاة أن تحبّ شابّاً بطريقة غير رومانسية. بالتأكيد، المحبّة والتقدير ممكنان، ولكن ليس الحبّ، ليس كما أحبّ ماكس. بالنسبة إليها، الرجال شركاء حياة، شركاء قلب وجسد، وهذه ناحية لا يمكن فصلها. أمّا الأصدقاء، فهم في الغالب فتيات. فمعي تشرب القهوة وتخرج إلى المقاهي (نادراً) وتتحدّث عن الرجال (غالباً). ولا تفهم كيف يمكن أن يكون ماكس عنصراً أساسيّاً في حياتي.

مع ذلك، كانت على حقّ اليوم عندما ألمحت إلى أنّ الوضع مع ماكس هو الذي يسبّب لي الاضطراب. فعندما ينظر إليّ كما فعل في الليلة الماضية، ويطرح الأمور بهذه الطريقة، يسبّب لي دائماً شيئاً من عدم الاستقرار. لكن لحسن الحظّ، هذا لا يحدث كثيراً.

واصلت فاليري مراقبتي لبضع لحظات، ثمّ تخلّت عن إصرارها.

«حسناً، فهمت، لا تريدين التحدّث في الأمر».

«أنت داهية. كيف حزرتِ؟».

«إنّه شعور، أنا أيضاً لديّ حدس. ولا بأس في ذلك، لأنّني أملك أخباراً».

«هيّا، تكلّمي».

«ستُصدَمين قليلاً».

«حسناً، ما الأمر؟ هيّا، انطقي الجوهرة».

انحنت تحت الطاولة وبحثت في حقيبتها، قبل أن تُخرج شيئاً صغيراً مستديراً ولامعاً أدخلته في أهمّ إصبع في يدها اليسرى. وأنا لا أتحدّث هنا عن الوسطى.

«كلّا...».

«نعم سيّدتي، لقد عرض عليّ ديف الزواج أمس».

«كلّا!».

«بلى!».

«أوه، يا إلهي!».

شحنتُ كلامي بما استطعتُ من عاطفة، وقد بدت حقيقية على ما أعتقد. لا بل هي حقيقية على ما أعتقد.

نهضتُ وذهبت لمعانقتها. أنا لست من الأشخاص الذي يجيدون التصرّف في هذه المناسبات، غير أنّ فاليري إحدى أعزّ صديقاتي وتستحقّ أن تكون سعيدة، لذا لم يكن عناقي وحماستي زائفَين. من جانبها، هي تعرف جيّداً أنّني أبذل جهدي، وأنّني سعيدة من أجلها، حتّى لو لم

أكن أفهمها. بدت متأثّرة وابتسمَت ابتسامة شخص ممتنّ للدعم الذي يتلقّاه في خياراته. ثمّ عدنا للجلوس، ووجدتها تتوهّج مائة مرّة أكثر من أيّ شخص وأيّ شيء في المقهى.

«يا إلهي، هذا جنون».

«أعرف، نخطّط للزواج في الربيع».

هنا، وجدتُ صعوبة في إخفاء دهشتي.

«بهذه السرعة؟».

«نعم، ولمَ الانتظار؟».

«حسناً، لا أدري، لطالما تخيّلت أنّك ستأخذين وقتك للتخطيط لكلّ هذا».

«نعم، ولكنّني أخطّط له منذ فترة طويلة. وديف موافق. فهو يعرف بماذا يورّط نفسه على أيّ حال، وليس الأمر كما لو أنّه لا يعرفني بعد».

«ديف رائع».

«لا تخبريه بذلك وإلّا امتلأ غروراً».

أخذت رشفة أخيرة من قهوتها، ونظرت إليّ بخجل.

«ماذا؟».

«أنا سعيدة لأنّك سعيدة».

«ولكن يا فاليري، هل كنت تظنّين أنّني لن أفرح من أجلك؟».

«بلى، ولكنّني أعلم أنّك لستِ من محبّي هذه الأمور».

وضعَت يدها على يدي، وشعرتُ ببرودة الخاتم على كفّي، لكنّ يدها كانت دافئة.

«لست أنا التي ستتزوّج، بل أعزّ صديقة لي».

«آه، تعنين أنا؟ كنت أظنّ أنّني آتي في المرتبة الثانية...».

سحبتُ يدي وأشحتُ بنظري بعيداً، بشيء من الاضطراب. فابتسمت فاليري برقّة.

«أنا أضغط عليك، أليس كذلك؟».

«لن تكوني أعزّ صديقاتي إن لم تفعلي ذلك».

«حسناً، ربّما. إذاً، دعيني ألعب على تندر بدلاً منك قليلاً. فهذا سيشتّت انتباهي ويمنعني من الاسترسال في قول الهراء».

كانت تعلم أنّ ما تقوله ليس هراء، وكنت أعلم أنّها تتحرّق شوقاً للإصرار عليّ قليلاً بعد، لكنّها لما كانت أعزّ صديقاتي لو لم تكن تعرف متى تتوقّف.

ماكس

ستيفاني هو اسم الفتاة التي تلقّت طلبيّتي في ماكدو، على الأقلّ هذا ما هو مكتوب على بطاقتها التي تبدو جديدة. لديها عينان بنّيتان كبيرتان محدّدتان بالكحل – نعم، أنا أعرف ما هو الكحل. فصحيح أنّني لا أملك أختاً، لكنّني واعدت عدداً كافياً من الفتيات لكي أكوّن، رغماً عنّي، أساساً متيناً في مجال مساحيق التجميل.

ذكّرتني ستيفاني تلك إلى حدّ ما بحيوان ضائع، مثل ظبية وجدت نفسها في وسط طريق سريع. أمّا الطريق السريع هنا، فهو الجهة الخلفية من مكتب المحاسبة في ماكدونالدز، والظبية، فتاة تتساءل كيف وصلَت إلى هنا، إلى هذا المكان العابق برائحة البطاطس المقليّة الدهنية وبيض ماك مافن المقليّ أكثر من اللازم. راحت تراقبني من طرف عينها، وهو السلوك الكلاسيكي لفتاة يعجبها ما تراه، من دون أن تجرؤ على إظهار ذلك. هذا يرضي غروري الذكوري دائماً، عندما أنال إعجاب فتاة ما. غمزتها، فأصبح لون خدّيها بلون شعر رونالد. لم تكن جميلة على نحو خاصّ، ولكن بالنسبة إليّ، لا تقتصر المتعة على المغازلة عندما أريد فتاة ما. ففي معظم الأوقات، لا يكون في ذهني هدف محدّد أسعى إليه. فأنا لا أتطلّع بالضرورة إلى الحصول على رقم ولا حتّى إلى إقامة علاقة جسدية. إذا أدّى الأمر إلى ذلك، فليكن، ولكن لا مانع لديّ أن تقتصر الأمور على ما دون ذلك. فاللعبة هي التي تعجبني، والتأكيد أنّني أنال الإعجاب. وهذا يثير غضب كام، التي تقول إنّني أعرف أساساً أنّني وسيم، ولست بحاجة إلى مضايقة الفتيات بهذه الطريقة. حاولت أن أشرح لها أنّني لا أعد الفتاة بالنجوم عندما أغمزها، بل أستفيد وحسب من حقيقة أنّني أستطيع أن أغمز من دون أن أبدو أبلهاً، فهذا امتياز لا ينعم به الجميع. لكن بالنسبة إلى كام، هذا يعني وسيعني دائماً المزيد. فهي لا تُلقي بنفسها في أيّ علاقة لمجرّد المتعة، على عكسي أنا. وأشكّ أحياناً في أنّها تشعر بشيء من

الغيرة، علماً أنّنا لم نتحدّث في ذلك قطّ. فحتّى بعد أربع سنوات من الصداقة، ثمّة مواضيع من الأفضل حفظها في قسم «عدم النقاش».

أعطتني ستيفاني طلبيّتي وابتسمتُ لها، أوّلاً بدافع التعاطف مع وظيفتها غير الممتعة، وثانياً لأنّ أوّل فتاة أقمت علاقة معها كانت تدعى ستيفاني، ومنذ ذلك اليوم وأنا أملك ضعفاً تجاه الفتيات اللواتي يحملن هذا الاسم.

كنت في الرابعة عشرة في تلك المرّة الأولى، فيما كانت هي في السادسة عشرة، وهذا ما ضمن سمعتي كشابّ جذّاب حتّى تخرّجي من المدرسة الثانوية. صحيح أنّني لم أقم بإذاعة الخبر هنا وهناك، فهذا ليس أسلوبي، لكنّ هذه الأشياء تُعرف دائماً في نهاية المطاف، لا سيّما في الثانوية. في الواقع، هذه الأمور تُعرف دائماً، بغضّ النظر عن العمر. فمن أجل البقاء على قيد الحياة، يحتاج الإنسان إلى الأكسجين والماء والغذاء... وإلى جرعة جيّدة من القيل والقال.

كنت طويل القامة بالنسبة إلى عمري في ذلك الوقت، وقد اكتسبت أساساً الثقة الزائفة التي لا تزال تميّزني حتّى اليوم. أجل، ثقة زائفة. وقلّة هم الأشخاص الذين سيصدّقونني إذا تجرّأت على الاعتراف أنّني، في أعماقي، أطرح على نفسي كثيراً من التساؤلات، وأنّني أكون شديد القلق أحياناً والأفكار تعصف في رأسي لدرجة أن أعجز عن النوم. مع مرور السنين، تعلّمت تحويل هذه الكتل من انعدام الأمان إلى جدار مدرّع، بحيث بتّ أذهب أحياناً إلى الفراش منهكاً من حمل هذا السراب طوال اليوم. فمن المرهق التظاهر بالقوّة على الدوام.

بالعودة إلى ستيفاني الأولى... كانت تتمتّع بجمال ساحر. هي التي علّمتني كيف أرضي المرأة (وأنا لا أتحدّث هنا عن الأزهار أو الشوكولاتة). كانت هي أيضاً التي علّمتني، بشكل غير مباشر، أنّ أفضل طريقة للفت نظر الفتاة إيهامُها أنّك غير مهتمّ بها. أعلم أنّها ليست لعبة جميلة، وربّما هذا ما يجعل منّي شابّاً مستهتراً، كما أتخيّل أنّ هذا رأي كثير من الفتيات اللواتي واعدتهنّ، لكنّني لم أزعم خلاف ذلك قطّ. ستقول كام إنّه ليس من الأفضل أن أختبئ وراء صدقي لكي أطهّر نفسي من ذنوب تحطيم القلوب. فبإمكان كام أن تتمتّع بصفاء ذهن هائل، عندما يتعلّق الأمر بالقلوب المحطّمة. وأعتقد أنّ السبب في ذلك أنّها تعرّفت على كثير من الشبّان المستهترين وذوي النوايا السيّئة الذين لا يفكّرون سوى في احتياجاتهم ويتجاهلون احتياجاتها. فكام من الفتيات اللواتي يضعن

الآخرين في المرتبة الأولى. وهذه على الأغلب أفضل ميزة يمكن أن يتمتّع بها الإنسان، حتّى لو أنّها تجعل منها مغناطيساً للرجال الأنانيين.

لا أحبّ التفكير في ذلك كثيراً. فأنا أحزن عندما أعرف أنّ شابّاً واحداً حطّم قلبها أكثرَ ممّا أحزن عندما أفكّر في كلّ القلوب التي قسوت عليها. ربّما لهذا السبب أنا شابّ مستهتر حقّاً؟ لكنّني لا أحبّ سوى قلّة من الناس في الحياة، وليست لديّ القدرة على الانشغال ببقيّة العالم.

إذاً بالعودة إلى ستيفاني، سأنهي قصّتي. كنت كثيراً ما أراها في الكافتيريا في وقت الغداء، ونحبّ أنا وأصدقائي الشباب أن نخبر بعضنا البعض بما سنفعله بها، كما لو كانت أيدينا النهمة والخرقاء في تلك المرحلة من المراهقة تعرف حقّاً كيف تتصرّف. كان ثمّة شيء جميل ومثير للسخرية تماماً في سذاجة الشباب تلك. مع ذلك، وفي يوم من الأيّام، قرّرتُ أن أكفّ عن الحلم وأنتقل إلى العمل. هكذا بدأت أغازل صديقاتها. إنّها أقدم حركة في تاريخ البشرية، أعرف ذلك. غير أنّني مع مرور الوقت، والفتيات، حسّنت مهاراتي، وأجرؤ الآن على الاعتقاد بأنّني أكثر ذكاءً اليوم، على الرغم من أنّ المبدأ لا يزال على حاله.

مع ستيفاني إذاً، اختبرت ذلك التكتيك للمرّة الأولى. توقّفتُ عند الطاولة التي تتناول إليها العشاء مع صديقاتها وتحدّثت إلى جميع الفتيات باستثنائها هي، كما أثنيت على شعرهنّ وأحذيتهنّ وستراتهنّ الجديدة من بايبي فات، التي كانت رائجة للغاية في بدايات الألفية الثانية.

بعد بضعة أسابيع من هذا السلوك، اعترضتني ذات مساء بينما كنت أهمّ بمغادرة المدرسة. كنت أحمل لوح تزلّج تحت ذراعي، وقبّعة وضعتها معكوسة على رأسي، وقلبي يكافح مثل أسد في قفص، أحاول أن أبدو مرتاحاً عندما وضعت يدها على صدري، وانتشر دفء بشرتها عبر جسدي. هاجمتني على الفور:

«ما مشكلتك؟».

«المعذرة؟».

«أنت تتحدّث إلى الجميع ما عداي أنا».

«أوه كلّا...».

«بلى».

«لا أعرف ماذا أقول لك يا ستيفاني».

«أوه، على الأقلّ أنت تعرف اسمي».

«نعم، بالطبع، أعرف اسمك. أساساً، الجميع يعرفون اسمك».

نظرتُ إلى عينيها مباشرة، وأعتقد أنّها اعتبرت نظرتي نابعة عن الغطرسة. غير أنّني في الواقع، كنت أحاول عدم النظر تحت ذقنها، لكي لا ينكشف أمري بفعل الحرارة المتسارعة التي تنتشر عبر عروقي، وإلاّ لبدوتُ شابّاً أحمق ولخسرتُ الأرض التي فزتُ بها ببسالة.

«إذاً، ألم تكن تنوي مغازلتي؟».

«بصراحة؟ كلاّ».

نظرَت إليّ كما لو أنّني صفعتها للتوّ. فشعرتُ بالخوف، وتساءلت ما إذا كنت قد تماديتُ كثيراً، لكنّني قاومت إغراء الاعتراف لها بكلّ شيء. فهذا ليس الوقت المناسب للتراجع، وقد أصبحتُ قريباً جدّاً من الهدف.

«لماذا؟».

هنا أدركتُ كم كانت ستيفاني فتاة واثقة من نفسها. فبالنسبة إليها، لم يكن عدم اهتمام شابّ بها أمراً مطروحاً حتّى. وقد أرادت أن تعرف السبب الحقيقي، لذلك أخبرتها جزئيّاً.

«لا أعتقد أنّك بحاجة إلى شابّ آخر يخبرك كم أنت جميلة».

ابتسمَت تلك الابتسامة التي تخفي سرّاً، فعرفتُ عندئذٍ أنّني فزت.

«أنا لست جميلة وحسب، كما تعلم».

«آه؟».

«أنا طيّبة أيضاً».

فوجئت، ولم أعرف بماذا أجيب. فقد فازت ستيفاني بدورها للتوّ.

بعد ثلاثة أيّام، دعتني ستيفاني إلى منزلها. لم يكن والداها هناك، وكان الوقت في منتصف بعد الظهيرة، وكانت الشمس تغمر غرفتها التي لا تزال غرفة طفلة. بعد ظهر ذلك اليوم، وببشرتها المشبعة بضوء الربيع، علّمتني ستيفاني الأمور التي تحوّل الصبيّ إلى رجل.

كام

كنت صغيرة جدّاً عندما فقدتُ أمّي، بالكاد بلغت التاسعة من عمري. هي أيضاً كانت لا تزال صغيرة، أعني على الموت. لم تكن قد تجاوزت الثانية والأربعين، عندما توفيت نتيجة سرطان عنق الرحم الذي انتشر في جسدها في نهاية المطاف. آلاف الأورام الخبيثة المصنوعة من جسدها نفسه، وهي قمّة الخيانة، لدى التفكير في الأمر. تمّ التشخيص في مايو، وبعد شهر، كان كلّ شيء قد انتهى.

من النادر نسبيّاً هذه الأيّام أن تكون فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها بلا أمّ. ودائماً ما يبدو على الناس عدم الارتياح عندما يكتشفون ذلك، كما لو أنّ عليهم الاعتذار لتجرّئهم على التحدّث معي عنها، أو كما لو كان غيابها ذنبهم. ينظرون إليّ وكأنّهم يخشون أن أنهار أمامهم. لكن لا داعي للقلق. فقد عشت بدونها ستّة عشر عاماً، ولم أعد بخطر الانهيار حزناً. لم يعد التفكير فيها يدفعني على البكاء، باستثناء 18 يونيو، وهو تاريخ وفاتها، الذي يمرّ دائماً بصعوبة. ولا أعرف حقّاً السبب في الواقع. فأنا لا أشتاق إليها في 18 يونيو أكثر ممّا أفعل في 23 أكتوبر. لكن ربّما كان هذا التاريخ يجبرني على التوقّف عنده، في حين أنّني عموماً لا أفكّر في الأمر كلّ يوم. وحتّى لو فكّرت في الأمر، فهو لا يسبّب لي حزناً كبيراً. ذلك أنّ الحزن يتلاشى بمرور الوقت، ويفقد شدّته، مثل صورة اصفرّت مع الزمن وأصبحت ألوانها أقلّ وضوحاً وأقلّ إشراقاً.

ما يخيفني بالمقابل كان نسيانها. ليس نسيان وجهها، كلّا، إذ من السهل تذكّره بسبب الصور. ما أخشاه أن أنسى التفاصيل الأخرى، كنغمات صوتها، ورقّة عناقها، وضحكتها التي كان يتردّد صداها في الغرفة... تقريباً كضحكتي، على ما أعتقد، حتّى لو لم أعد متأكّدة من ذلك. في بعض الأحيان، تعود إليّ ومضات من الذكريات: فيلم شاهدته على حضنها، أو أصابعها التي تداعب شعري، والرائحة المميّزة لصلصة السباغيتي التي كانت تشتهر بها، أو الطريقة التي كانا يرقصان بها هي وأبي في غرفة المعيشة وهما يستمعان إلى الجاز، في وقت متأخّر من الليل، عندما يظنّان أنّنا نائمتان، أنا وأختي. إنّها ذكريات عابرة تظهر وتختفي بسرعة. وبمرور الوقت، تعلّمت السماح لها بالظهور، والأهمّ، السماح لها بالتلاشي.

كانت أختي الصغرى قد بلغت الخامسة من عمرها للتوّ عندما ماتت والدتنا، وأعتقد أنّ الأمر كان أصعب عليها، وأسهل في الوقت نفسه ربّما. أصعب، لأنّها لم تحصل عملياً على أمّ قطّ، وأسهل، لأنّها لم تعرفها بما فيه الكفاية لكي تحزن على غيابها. لا أدري ما هو الأصعب حقّاً في الواقع. على أيّ حال، ليس هذا من المواضيع التي نناقشها كثيراً، أنا وهي. فصوفي رحّالة حقيقية، تعيش في مدينة مختلفة كلّ شهر، ولا يبدو أنّها ستعود إلى كيبيك قريباً. قد لا تعترف بذلك أبداً، لكنّني أعتقد أنّها تهرب من شيء تجهل طبيعته هي نفسها. تهرب أو تبحث، لست أدري تماماً. ربّما كان يجدر بي أن أحدّثها أكثر عن أمّنا.

أمّا بالنسبة إلى أبي، فكان بإمكانه أن يتفاعل بعدّة طرق مع وفاة أمّي. فقد تُرك وحيداً مع ابنتين، إحداهما لا تزال صغيرة جدّاً على فهم ما يجري، وكان من الممكن أن يغوص بنتيجة ذلك في اكتئاب عميق، ويُغرق ألمه في زجاجات الشراب. كان بإمكانه أيضاً أن يجري من امرأة إلى أخرى، باحثاً عن العاطفة والدفء البشري لدى نساء غريبات. فيعثر بذلك على بديل مؤقّت، لعدم قدرته على تولّي كلّ شيء بنفسه. أو ربّما كان بإمكانه أن يسجن نفسه في الصمت والبرودة، وينأى بنفسه عن كلّ شيء لكي لا يشعر بحزن فقدان أهمّ امرأة في حياته، حتّى قبل ولادتنا. أنا واثقة من ذلك حتّى اليوم. فأنا وصوفي الشخصان الأهمّ بالنسبة إلى أبينا، ولكنّنا لن نملأ يوماً الفراغ الذي تركته المرأة التي كانت حبّ حياته. فهذا ليس النوع نفسه من الحبّ، ولا يمكن أن يقارن به.

كان بإمكان والدي أن يفعل كثيراً من الأمور، ولكنّه قرّر ببساطة أن يكون كلّ شيء بالنسبة إلينا، الأمّ والأب. ولن تكفيني الكلمات يوماً لأعبّر له عن مدى امتناني، علماً أنّه لن يسألني ذلك أبداً. فهذا يشكّل جزءاً من الكلّ، حبّ غير مشروط وغير محدود. فوالدي لا يحبّنا لكي نحبّه بالمقابل، ولهذا السبب نحن نحبّه كثيراً.

ماكس

«أما زلت تعاكس الجنس اللطيف؟».

«ممكن».

«ما الاسم؟».

«إيريك».

«تبّاً، ماكس! أنت أحمق».

«أعرف، ولكن على الأقلّ أنا وسيم».

ضحكت آن بصوت خافت فوق حسائها، بينما دسستُ هاتفي الخلوي في جيبي. من حولنا، كانت قاعة الطعام الصغيرة تمتلئ بالوافدين. أنا أحبّ حقّاً أجواء مكان عملي. فهي أجواء شابّة وعصرية وجميلة، لا تتّسم بكثير من الجدّية. إنّها تشبهني في الأساس. وهذا أحد الأسباب التي دفعتني إلى اختيار شركة العلاقات العامّة هذه. فقد تلقّيت عروضاً مثيرة للاهتمام عندما أنهيت البكالوريا قبل ثلاث سنوات. وكان بإمكاني الذهاب للعمل في إحدى الشركات في مكان ما في المدينة العليا، وأن أختار شركة أكثر أهمّية تدفع راتباً أعلى أيضاً. كما كان بإمكاني الذهاب إلى مونتريال. فقد تلقّيت عرضاً من شركة كبيرة تقع مكاتبها في وسط المدينة تماماً، وتردّدت حقّاً قبل أن أرفض. أخيراً، وقع اختياري على الشركة الأصغر الواقعة في سان روش. صحيح أنّ الراتب جيّد، ولكنّه ليس تنافسياً بقدر ما كنت سأتقاضاه في مكان آخر. مع ذلك، فأنا مرتاح هنا. ولو عرف

والدي بالأمر، لأكّد أنّني أفتقر إلى الطموح. أمّا كام، فرأت من جانبها أنّني خائف من نجاحي، ومن النجاح الذي كنت سأحقّقه في شركة كبيرة، من خلال العمل لصالح عملاء كبار. من ناحيتي، لطالما اعتقدتُ أنّني أحببتُ الشركة والناس، ولم أندم قطّ على اختياري. ربّما لأنّني لست متمسّكاً بامتلاك مهنة مهمّة، بل أريده أن أكون سعيداً وحسب. فالسعادة شكل هامّ من أشكال النجاح برأيي، ومن الصعب أن أشرح ذلك لوالدي ولكاميل أيضاً. ليس لأنّها لا تريد أن تكون سعيدة، بل على العكس. لكنّني أعتقد أنّها أكثر منّي قدرة على التضحية بسعادتها من أجل عملها.

بحثت آن في حقيبة غدائها، ووضعت على الطاولة أمامي كيساً مليئاً بالكعك من كافة الأشكال، ثمّ دعتني بنظرها إلى تذوّق محتوياته. تردّدتُ، إذ بدا وكأنّ الكعك أمضى عشر دقائق إضافية على الأقلّ في الفرن.

«ثمّة واحدة لك».

«أوه، ما كان ينبغي أن تتعبي نفسك».

«إيفا هي التي صنعتها».

«آه حقّاً، هذا يغيّر كلّ شيء».

بالكاد تبلغ ابنتها إيفا تسع سنوات من العمر. غالباً ما تحضرها آن إلى المكتب في الأيّام التربوية. وعلى الرغم من شكوكي الكبيرة حول مهاراتها في الطهي، إلّا أنّني أعشق تلك الصغيرة، ولذلك فتحتُ الكيس واخترت أصغر كعكة، ثمّ تناولتُ منها قضمة كبيرة. بدا طعمها مريعاً، فابتسمَت آن، التي بدت أنّها تستمتع بعذابي.

آن هي مصمّمة الغرافيك لدينا، والأمّ غير الرسمية لجميع موظّفي المكتب.

فبرأيي، ثمّة نوعان من النساء. ثمّة أولئك اللواتي يملكن غريزة أمومة قويّة جدّاً، ويتصرّفن دائماً حتّى قبل إنجاب الأطفال، كأمّهات لأصدقائهنّ. إنّهنّ ذلك النوع من الفتيات المستعدّات دائماً لتقديم المساعدة، واللواتي لا يغادرن المنزل من دون حمل وجبات خفيفة أو أدوية أو ضمّادات في حقائبهنّ. وثمّة أولئك اللواتي لا يعرفن حقّاً كيف يتعاملن مع طفل، فيحملنه على مسافة ذراع وتشحب وجوههنّ عندما يبدأ في البكاء. بالنسبة إلى آن، لا شكّ في أنّها كانت صديقة أمّاً قبل أن

تكون أمّاً بالفعل. ربّما لهذا السبب تبنّت إيفا عندما أدركت أنّها عاجزة عن الإنجاب. فالحياة لا تكتمل دائماً. ومن المحزن أن يكون لدى كثير من الناس أولاد من دون أن يرغبوا في ذلك حقّاً، في حين يحلم آخرون بإنجابهم ولا يتمكّنون من ذلك. لكن في حالة زميلتي، سمح ذلك ليتيمة صغيرة بأن تعيش مع أمّ رائعة مثل آن. وأنا أستمتع برؤيتهما معاً.

واصلتُ أكل كعكتي بصعوبة، آملاً ألّا تعرض عليّ آن واحدة أخرى. فأنا مهذّب، ولكن إلى حدّ معيّن فقط. راقبتني، بينما تراقص وميض من التسلية في عينيها الزرقاوين الصغيرتين.

«أتعلم، لدى إيفا صديق».

«أفّ، منذ الآن!».

«نعم. يبدو أنّه ليس من السابق لأوانه أبداً تحذير الفتاة».

«ممّ؟».

«من الأولاد الذين قد يؤذونها».

«يحدث العكس أيضاً في بعض الأحيان».

«وهل حدث معك هذا من قبل؟».

بدا عليها عدم التصديق، فابتسمتُ. تعرفني آن جيّداً، فأنا أحبّ التحدّث معها عن صديقاتي، لأنّها قادرة على أن تكون موضوعية للغاية في آرائها. فهي متزوّجة، وأمّ، وسعيدة أيضاً. على أيّ حال، أنا لست من طرازها. فزوجها شرطيّ جدّي للغاية. أجبت:

«من الممكن لنا جميعاً أن نجرح شخصاً ما، لكن أعتقد أنّ هذا نادراً ما يكون هدفنا».

«ربّما كنتَ على حقّ. لكن أتعلم، في العلاقات، لا تهمّ النيّة إلّا قليلاً جدّاً، فالنتيجة هي الأهمّ».

ابتلعتُ آخر قضمة من كعكتي المتفحّمة، وقد انزعجتُ قليلاً من كلام آن. فأنا لم أرَ الأمور يوماً بهذه الطريقة. في الواقع، كانت على حقّ. فلا يكفي أن نقسم بأنّنا لا نريد إيذاء شخص ما لكي

نتحرّر من الذنب حيال كلّ الألم الذي قد نسبّبه له. وهذا لا يساعد كثيراً في حالتي... خمّنت آن انزعاجي على ما يبدو، لأنّها أضافت:

«إيفا في التاسعة من عمرها فقط، ولا يزال أمامها بضع سنوات قبل أن تواجه نكسات رومانسية».

«أتمنّى ذلك، فالتاسعة سنّ مبكرة قليلاً لتصاب بخيبة أمل».

«وماذا عنك، هل تعاني من خيبة أمل؟».

«لا أعرف حقّاً، هذا ممكن. فمن شأن ذلك أن يفسّر كثيراً من الأشياء».

أبقت الملعقة في فمها للحظة وهي تفكّر.

«أتعرف يا ماكس، لا أعتقد أنّك تعاني من خيبة أمل، بل ربّما كنتَ غير جاهز وحسب. يوماً ما، ستلتقي بفتاة، وستعرف، هذا كلّ ما في الأمر».

قبل أن أتمكّن من الإجابة، انضمّت إلينا جولي، زميلة أخرى، وانخرطت مع آن في محادثة حول برنامج تلفزيوني لا أعرف عنه شيئاً. أصغيت إليهما بشرود، بينما علق كلام آن في رأسي. فكّرتُ في كام، في المرّة الأولى التي التقينا فيها، عندما خطر ببالي أنّها شخص لا يمكنني أن أتحمّل خسارته. ألم أكن مستعدّاً في ذلك الوقت؟ وهل أنا مستعدّ الآن؟ إنّها أسئلة كبيرة، كما كانت آن لتقول، وتستتبع حتماً إجابات كبيرة، لست متأكّداً من أنّني أرغب في معرفتها.

يعتقد أبي أنّني أفتقر إلى الطموح، وتظنّ كام أنّني خائف من نجاحي. وفي النهاية، قد يكونان كلاهما على حقّ.

كام

أول خدش أصاب قلبي أتى من شابّ يدعى فينسان فليو. نعم، نعم، فليو، التي تُستخدم في الفرنسية للتحدّث عن مرض خطير وواسع الانتشار. بالمناسبة، تحدّثتُ إليه ساخرة من اسمه، كما كان يفعل الجميع في ذلك الوقت. بصراحة، لم تسر الأمور بسلاسة حينذاك. واليوم، يطلق فينسان على نفسه اسم فينس فليك، ويدرس الطبّ في جامعة ماكغيل. وأعتقد أنّ عالِماً نفسياً سيجد الكثير من المعطيات لتقييم تأثير شهرة فينسان على خياراته في الحياة.

التقينا في مشتل جاردان، الذي عملنا فيه خلال أحد فصول الصيف. أجل، مشتل أسرة جاردان، التي تعتبر شهرة ملائمة أكثر لأصحاب المشاتل من اسم فليو الذي يُعنى بالأمراض. هذا رأيي المتواضع، لكنّه قد يكون متحيّزاً.

كان عمل فينسنت يقوم على نقل النباتات والأشجار وغيرها من منتجات الأرض، بينما أمضي نهاري أمام الصندوق، أمسح الرموز الشريطية للنباتات المعمّرة أو أكياس التربة. كانت ذراعاه العضليّتان تتصبّبان عرقاً أمام عينيّ مراهقة في فورة شبابها، فكان ذاك الصيفَ الأكثرَ حرّاً.

بعد الانزعاج الأوّلي الذي سبّبه مزاحي بشأن اسمه، والذي لم يضحكه بالطبع، اكتشفنا بعض النواحي التي نتّفق فيها، لا سيّما حبّنا للسخرية، وكراهيتنا للمجاملات، ورغبتنا التي لا يمكن السيطرة عليها في التقرّب من بعضنا البعض. كنت في السابعة عشرة من عمري ولم تكن المرّة الأولى التي أتقرّب فيها من شابّ. بالمقابل، كانت المرّة الأولى التي أرغب فيها بذلك حقّاً، وهذا ما صنع كلّ الفرق.

عندما أفكّر في ذلك اليوم، ما زلت أشعر بطعم يشبه المرارة على لساني، ربّما من بقايا العرق والشوق والكآبة التي غمرتني في ذلك الصيف. لم تكن تجمعنا أنا وفينسان كثير من القواسم المشتركة في الأساس، والأهمّ أنّنا لم نفهم بعضنا البعض جيّداً. فقد كنت مقتنعة بأنّ عناقنا خلف المتجر، والليالي التي أمضيناها تحت النجوم، ودفء بشرتنا على العشب البارد كانت تعني شيئاً

بالنسبة إليه تماماً كما تعني بالنسبة إليّ. وظننت أنّ الأمسيات التي كان يلازم فيها المنزل بسبب تعبه من أشعّة الشمس الحارقة بعد يوم طويل في العمل، كان يمضيها في الراحة، وليس بالقرب من سارة، موظّفة الصندوق الأخرى. لم أدرك في ذلك الوقت أنّنا كنّا أنا وهي نتبدّل بين ذراعي فينسان، تماماً كما نتبدّل على الصندوقين واحد أو اثنين. لا شكّ في أنّه كان الصيف الأكثر حرّاً بالنسبة إليّ، وكذلك الصيف الذي قدّرتُ فيه فوائد البرودة. فقد فهمت أنّ الحفاظ على برودة الرأس والقلب يجنّب المرء كثيراً من المآسي.

اليوم، أنا أعلم أنّنا أنا وفينسان ما كنّا لنستمرّ. فقد كنّا صغاراً في السنّ ولم نتّفق تقريباً على أيّ شيء باستثناء مشاعرنا المتبادلة. في أعماقي، لم تكن خسارته هي التي آلمتني. كلّا، في تلك الحالة، وللمرّة الأولى، شعرت أنّني تعرّضت للخيانة. فقد آلمني أن أدرك أنّه لم يقدّر علاقتنا بقدر ما فعلت، ولم يكترث للحفاظ على الثقة التي وضعتها فيه. وعندما تتحطّم هذه الثقة، يصبح من الصعب إعادة تجميع حطامها، ليس على الشخص الذي تعرّض للخيانة وحسب، بل على كلّ من يقابله بعد ذلك.

ماكس

قليلة هي الأشياء التي أتفوّق فيها في الحياة. فأنا لست رائد أعمال بالفطرة، ولا أتمتّع بإلهام شاعر، كما أنّني لست عبقرياً في الرياضيات. في الحقيقة، أنا من النوع الذي يتدبّر أمره قليلاً في كلّ شيء. لست ماهراً في لعب الهوكي، لكنّني أجيد التزلّج. وفي حين لا أجيد الرقص، إلّا أنّني بارع في هزّ خصري. لطالما حصلت على درجات جيّدة، ولكن من دون أن أتفوّق. أنا أفضّل أن أكون متعدّد المهارات، وأن أتواصل مع الناس. وأشعر أنّني أبلي بلاءً حسناً في شهادتي في الاتّصالات وأنشطتي الترويجية وحديثي، فهذا يناسبني. ولا شكّ في أنّ هذا أحد الأسباب التي تجعل والدي ينظر إليّ كما ينظر المرء إلى شيء ليس واثقاً من أنّه يعجبه، ولكن لا يمكنه التخلّص منه بالضرورة. والدي بارع في فنّ التميّز، وكلّ ما يحوم حول المتوسّط يسبّب له القشعريرة. (كانت هذه جملة جيّدة في الواقع، وربّما كنت أتمتّع ببعض الإلهام في النهاية). باختصار، أحبّ أن أكون كما أنا، حتّى لو كنت أعرف جيّداً أنّني لن أنال جائزة على أيّ شيء.

مع ذلك، أنا ممتاز في ثلاثة مجالات. فأنا طيّب مع الناس، وأتمتّع بذاكرة قويّة، كما أنّني موهوب بالطهي. موهوب حقّاً، إلى حدّ دفعني على التفكير في الالتحاق بمعهد للطهي لفترة، قبل أن أتخلّى عن المشروع، بسبب الكسل أو الجبن.

على الرغم من أنّني لن أصبح يوماً طاهياً رسمياً، إلّا أنّني أحبّ التظاهر أنّني كذلك من وقت إلى آخر. فليالي الخميس هي دائماً ليلة مكسيكية في شقّتي بالنسبة إلينا أنا وكام، وهذا تقليد آخر من تقاليدنا. تُعتبر شقّتي مكاني المفضّل في العالم بأسره، وهي عبارة عن شقّة في دور علوي كبير، مع سقف يبلغ ارتفاعه أربع عشرة قدماً، وجزيرة كبيرة في المطبخ، وأرضيات خشبية قديمة فاتحة

اللون تصرّ تحت قدميّ في الصباح. اشتريت الشقّة بثمن زهيد بفضل معارف والدي... حسناً، للرجل حسناته أيضاً، وينبغي أن أستفيد منها. لذا، وبفضل مساعدة والدي وراتبي اللائق، تمكّنت من الحصول على هذا المسكن، الذي كان أوّل مكان شعرتُ فيه حقّاً أنّني في بيتي.

وصلت كام بعد دوامها في المقهى، محمّلة بزجاجات الشراب.

«أوليه!».

صفّقت بيديها بعد أن وضعت هداياها على المنضدة، ثمّ جلست على أحد المقاعد المرتفعة خلف الجزيرة. لا تقوم كاميل بالطهي عندما تكون في منزلي، بل تجلس، وتشرب، وتشاهدني وأنا أحضّر الطعام. ومع أنّها تحبّ الطهي (أقلّ منّي بالطبع)، غير أنّها تعلم أنّني أفضّل أن أتولّى كلّ شيء بنفسي عندما أكون في المطبخ. وهذه من المناسبات القليلة التي توافق فيها عن طيب خاطر على تسليمي زمام القيادة.

لفّت المقعد حول نفسه عدّة مرّات كما لو أنّها ترغب في الشعور ببعض الدوار، بينما هي تتأمّل الجزء من السماء الذي يمكن رؤيته من الأبواب الزجاجية التي تركتُها مفتوحة على مصراعيها. كان الهواء النقيّ لأوائل أكتوبر يدخل الغرفة مصحوباً بآخر أضواء النهار.

ارتجفَت وشدّت سترتها الجينز حول جسدها. رحتُ أختار حبّات الأفوكادو الأكثر نضجاً من وعاء الفاكهة قائلاً: «أعتقد أنّهم يقولون أوليه في إسبانيا، أليس كذلك؟».

«هل تريد شرابي أم لا؟».

أشرتُ إلى أعلى الخزانة، التي أضع فيها زجاجاتي. فليس الأمر وكأنّ الشراب سينفد.

غير أنّها كشّرَت قائلة:

«أكرّر: هل تريد شرابي أم لا؟».

«حسناً، نعم، أريد مع ذلك أن أتذوّق شرابك».

«أوليه!».

تردّد صدى ضحكتها في المطبخ. فتحتُ زجاجتين من شراب الشعير الذي أحضرَته وقدّمتُ لها واحدة. لم نكن نستخدم الأكواب قطّ. يعجبني أن تكون كام أنثوية، من دون أن تتصرّف كالأميرات. سبق وأخبرتها أنّها من نوع نادر من الفتيات، أولئك اللواتي لا تملأ السخافات رؤوسهنّ، ولكنّها أجابت أنّني لا أدري ما أقول وأنّها بالتأكيد فتاة معقّدة للغاية. إلّا أنّني تمسّكتُ برأيي هذه المرّة، وشرحت لها أنّ مخاوفها ليست سخافات برأيي. فما أحبّه فيها أنّها فتاة بسيطة: زجاجة من شراب الشعير، أو عصر يوم نمضيه على ضفّة الماء، أو أمسية مكسيكية في شقّتي الفوضوية، أو وجبة فطور نتناولها معاً في الصباح، لا تطلب كام أكثر من ذلك لتكون سعيدة.

هي فتاة مركّبة، نعم، ولكنّها ليست معقّدة.

أخذتُ الوقت الكافي لمراقبتها وهي تعبث بالملصق المبلّل على زجاجتها. تصاعدت أنغام أغنية ديسباسيتو في الخلفية، ومع أنّها ليست نوعي المفضّل من الموسيقى عادة، إلّا أنّها كانت منسجمة مع أجواء أمسيتنا. جعلتها الأغنية تبتسم، ولكنّ ابتسامتها لم تضئ وجهها كالمعتاد. فلاحظت حلقات داكنة حول بعينيها الكبيرتين، كانت بزرقة عينيها تقريباً. هكذا يكون شكلها في الأيّام العصيبة.

«تبدين بحاجة ماسّة إلى النوم».

«أعتقد أنّني بحاجة إلى شيء أقوى».

«الأفيون، لكنّه ليس أقوى بكثير على ما يبدو».

«نعم، كما أنّه يسبّب النعاس».

«الكوكايين إذاً؟».

«لا يملك التأثير نفسه، ولكنّه أفضل. أهو مشروع؟».

«أعتقد أنّ كلّ شيء مشروع، إذا كنت تملكين الوسائل».

«سأتحدّث إلى والدك أوّلاً».

«من المحتمل أن يقول إنّه ليس جيّداً للمبيضين».

«تبّاً لذلك العجوز الكاره للنساء».

ابتسمَت نصف ابتسامة مجدّداً. ذكّرتني بالمرّة الأولى التي قابلتها فيها، باستثناء أنّ نصف فمها غير المبتسم لم يكن هذه الليلة مليئاً بالغموض، بل بالتعب وحسب، أو ربّما بالحزن، من الصعب أن أعرف، على الرغم من أنّ وجهها معبّر للغاية.

«أنت تدركين أنّك لم تشتّتي انتباهي بما فيه الكفاية لأتوقّف عن سؤالك عمّا بك، أليس كذلك؟».

«نعم، أعرف. المسألة أنّني أجد صعوبة في وضع إصبعي على المشكلة».

«ولكن ألستِ على ما يرام؟».

«كلّا، ليس حقّاً. لا أدري، أشعر بالثقل...».

«كفّي عن أكل رقائق البطاطس».

«ماكس...».

«حسناً، أنا أعتذر، لن أمزح بعد الآن. إنّني أسمعك».

«لكن يمكنك أن تمزح قليلاً، فأنت تعرف جيّداً أنّني أحبّ ذلك».

«حسّ الدعابة لديّ يروق لك».

«هذا بالإضافة إلى ردفيك».

«حسناً، أنت تحاولين حقّاً تشتيت انتباهي».

«وهل نجحت؟».

«كاميل جينغرا، تكلّمي!».

راحت تعضّ على إبهامها الأيمن، الذي ينتفض دائماً عندما تكون متوتّرة.

«لا أدري حقّاً يا ماكس، أنا متعبة».

«أمِنَ الدراسة؟».

«إلى حدّ ما».

توقّفَت عن عضّ إبهامها وراحت تعضّ شفتها السفلية الآن. أنا أعرف وجهها عن ظهر قلب. إنّها التعابير التي تعني «لقد سمعت خبراً، لكنّني لست متأكّدة من أنّني أريد مشاركته بعد».

«كام... أخبريني بما يجري. على أيّ حال، أنت تعلمين جيّداً أنّه بعد الشراب، سأنتهي بسحب الأخبار من فمك».

«هذا مؤكّد...».

مرّرت يدها عبر شعرها الذي بدأ يفقد شُقرة الصيف. تحت بشرتها المخضرّة بسبب قلّة النوم، بدأ اسمرارها يتلاشى. قريباً، ستعود بيضاء كالثلج الذي سيبدأ في التساقط، وسيشحب لونها لدرجة أنّني سأتمكّن مجدّداً من رؤية الشريان الأزرق الذي يظهر في جبهتها عندما تتوتّر، كما هو الحال الآن.

«لقد حصلتُ على منحة دكتوراه».

«أوه».

«نعم».

أيّ شخص آخر كان سيطير فرحاً من أجلها، لكنّني أعرف كام. فمع أنّها تعمل على شهادة الماجستير في التربية النفسية، إلّا أنّها تحلم منذ مدّة طويلة بالتخلّي عن كلّ شيء لدراسة الأدب. فهي باحثة بروح فنّانة، ولديها موهبة حقيقية مع الكلمات. بالنسبة إلى أيّ شخص يطمح إلى القيام بدراسات عليا، تعادل هذه المنحة الانضمام إلى أحد نوادي الرابطة الوطنية للهوكي. أمّا بالنسبة إلى

كاميل، فإنّ الأمر يعادل أن تعلم أنّ فريق كنديي مونتريال يريدون توقيع عقد معك في حين أنّك تحلم في أعماقك بالرقص في فرقة الباليه الكندية.

«وما هو المبلغ الذي نتحدّث عنه هنا؟».

«كثير جدّاً من المال. في الواقع، لن أحتاج إلى العمل طوال فترة تحضيري للرسالة».

«أنت تتحدّثين بالفعل كما لو أنّك ستقبلين المنحة».

«وهل لديّ الخيار؟».

«لدينا دائماً الخيار».

«ومنذ متى تتحدّث بالكليشيهات؟».

«حسناً أنت محقّة، هذا كليشيه، ولكن... أنا جادّ، لديك الخيار. وأنت تعلمين ذلك، صحيح؟».

«كلّا يا ماكس، ليس لدي الخيار. فأنا طالبة، وحتّى ديوني عليها ديون. ربّما كنت أملك الخيار، نعم. لديّ خيار الذهاب لجرف الثلوج أو إيجاد عمل بأجر زهيد لن يأخذني أبعد من طاولات المقهى التي أنظّفها كلّ أسبوع. إمّا هذا أو خيار العودة إلى أرض الواقع لأبني لنفسي مهنة محترمة، براتب لائق، وربّما من دون أن أكون راضية حقّاً عن حياتي، ولكن على الأقلّ لن أكون بحالة سيّئة، وهذا أفضل إلى حدّ كبير من بقيّة العالم».

تجرّأتُ على التدخّل قائلاً:

«كما تعلمين، المال ليس كلّ شيء».

ردّت بجفاف:

«من السهل قول ذلك عندما تملكه».

عمّ الصمت الغرفة. أخذتُ رشفة أخيرة من الشراب، ثمّ حملتُ الزجاجة لأضعها في خزانة في المدخل أجمع فيها كلّ الزجاجات الفارغة، ثمّ عدت لفتح زجاجة أخرى. عندما عدت إلى كام، كانت قد انتهت من نزع الملصق وراحت تقلّب الزجاجة بين يديها. أردت أن أقول لها شيئاً يريحها،

وأن أحتضنها، وأعطيها كلّ مال العالم، لكنّ كبريائي آلمني قليلاً. فقد لامس كلامها وتراً حسّاساً، ذاك المتعلّق بمحفظة والدي، ولم أستطع ابتلاعه بسهولة. وكانت تعرف ذلك جيّداً.

«أنا آسفة يا ماكس، حقّاً آسفة».

بدت صغيرة جدّاً، وهي منحنية فوق كرسيها. فأخذت الزجاجة من بين يديها، ثمّ فتحتُ لها زجاجة أخرى، ووضعتها أمامها. بدأت الغصّة تتضاءل أمام نظرات عينيها الكبيرتين الشاردتين. كان لكاميل تعابير حزينة تجعلني مستعداً لفعل أيّ شيء. في الواقع، لا ينبغي لها أن تُظهر هذه التعابير للشباب الذين يحطّمون قلبها، وإلاّ، فلن يرحلوا أبداً.

«لا بأس».

«أعلم أنّ العكس هو الصحيح».

«كلّا، في الواقع، كانت تسديدة جيّدة تحت الحزام، ولكن لا يمكنني البقاء غاضباً منك طوال الأمسية. حتّى إنّنا لم نأكل الغواكامولي بعد».

«هذا صحيح، سيكون الوضع محرجاً».

«بالضبط. وأنت تعلمين أنّني لا أجيد التعامل مع الأوضاع المحرجة».

«كما أنّ أكل الغواكامولي في حالة غضب...».

«يا لها من خسارة».

«تماما».

ابتسمَت، وبادلتُها الابتسام. هنا يكمن جمال محبّة أشخاص بقدر ما أحبّ كام: من المستحيل أن أبقى غاضباً منهم. وهذا من حسن حظّهم ومن حسن حظّي أنا أيضاً لأنّه من غير الممتع حمل ضغينة طويلاً تجاه شخص ما، وإلاّ فسينتهي بنا الأمر بالتعفّن من الداخل.

لم نتحدّث مجدّداً عن منحة الدكتوراه لأنّ الحديث غير مجدٍ، ليس هذا المساء. الليلة، تريد أكل التاكو، والضحك، والحديث، والشرب بما فيه الكفاية فقط لتنسى ما يُثقل قلبها.

لذلك سعيتُ جاهداً لطهي أفضل تاكو تذوّقَتها على الإطلاق. فوضعتُ فيها مزيداً من الاهتمام، ومزيداً من الحبّ. لا أعرف ماذا أقول لها، لكي تفهم أنّني موجود من أجلها، وأنّني لم أبرع في ذلك يوماً. لذا بدلاً من ذلك، فضّلتُ العمل. فحشوتها بالغواكامولي، وملأتُها بالشراب، ورويت لها طُرَف حياتي هذا الأسبوع، وبالغتُ قليلاً لكي أجعلها تضحك. أخيراً أصبحت عظام وجنتيها وردية، وتلاشى بعض من اللون الأخضر الحزين الذي كان يسود وجهها.

قد لا أكون قادراً على طمأنتها ومساعدتها على اتّخاذ الخيارات الصحيحة، لكنّني على الأقلّ لم أفشل في جعلها أقلّ حزناً، وهذا يكفيني تماماً.

كام

منذ صغري وأنا أحلم بتأليف الكتب. يرغب بعض الأطفال في أن يصبحوا طيارين أو أبطالاً خارقين أو رجال إطفاء، أمّا أنا، فأردت كتابة القصص. بمرور الوقت، تتبدّد معظم أحلام الطفولة، ويسيطر الواقع، ونتعلّم إقامة تسوية بين ما نحلم به وما نجيده. ومع أنّني ظللت أتمنّى، وأنا أكبر، أن أوفّق يوماً ما بين الحلم والواقع، لكن، عندما وصلت إلى الجامعة، دخلتُ فرع علم النفس بدلاً من التوجّه إلى الأدب، لأنّني... في النهاية، لا أذكر حتّى دوافعي في ذلك الوقت. قد يكون مزيجاً من الضغط الاجتماعي، وسنوات من مشاهدة والدي يكافح لتغطية نفقاته، هذا فضلاً عن نقص مفترض إلى حدّ ما في الثقة بالنفس. مع ذلك، بقيت مقتنعة بأنّني سأنعطف يوماً ما إلى الأدب، وأنّ الأوان لم يفت على التغيير، وأنّني لم أخسر شيئاً. ثمّ ما لبثتُ أن بدأت دراسة الماجستير بشكل غير متوقّع إلى حدّ ما، بناء على اقتراح أستاذ في قسم التربية النفسية كان قد أحبّ عملي كمساعدة باحث. فعدتُ إلى الدراسة وأنا أكرر في نفسي أنّ هذا القرار ليس نهائياً، وأنّه بإمكاني في هذه الأثناء متابعة الدراسة لفترة أطول قليلاً «لنرى» إلى أين سيقودني ذلك.

وها أنا ذا، حاصلة على منحة بحثية لدرجة دكتوراه في التربية النفسية، ممّا يضعني بالتأكيد على بداية طريق مشرّف، وإن يكن مرسوماً مسبقاً، نحو وجهة لا أرغب في زيارتها بالضرورة، ومكان لا أشعر بالرغبة في الاستقرار فيه. والمشكلة أنّه في وقت من الأوقات سيصبح الدفع قويّاً جداً، ولن أتمكّن من مقاومة التيّار والذهاب في الاتّجاه المعاكس. وأشعر أنّ هذا ما سيحدث، إذا ما قبلتُ هذه المنحة. فالانخراط في مسار الدكتوراه مغامرة تدعو إلى الفخر... وهذا ما أشعر به على ما أعتقد. إلّا أنّه سيكون حِداداً أيضاً، حداداً على حلم. وما من شيء أكثر كآبة من الاضطرار إلى التخلّي عمّا يجعلنا نحلم.

هذه الليلة، ساعدني الشراب قليلاً، لحسن الحظّ، وكذلك فعل ماكس. لاحظت أنّه غير مرتاح، ليس بسببي، كلّا، بل بسبب حيرتي. فقد انتابتني رغبة في الضحك وأنا أراه يحوم حولي منذ بداية المساء، محاولاً تشتيت أفكاري، ويرسل إليّ جرعات من الحبّ على طريقته. فيسترسل في النكات، ويضغط بيده المريحة على مؤخّر رقبتي، ويروي لي حكايات شبه حقيقيّة دارت في مكان عمله، أحداثها عجيبة لدرجة أنّها أضحكتني حتّى البكاء. كان مريحاً، سواء بجهوده الخرقاء إلى حدّ ما أو بوجوده. وفي الأساس، وجوده وحده يكفيني. وددت إخباره بذلك، لكنّني لم أكن بكامل وعيي. في الماضي، لم يكن ليمنعني ذلك. لكن خلال الأسابيع القليلة الماضية، اختلفت الأمور بيننا، علماً أنّني لا أعرف السبب، ولا أدري متى حدث هذا التغيير. كلّ ما أعرفه أنّني أشعر بانعدام يقين مؤلم يجعلني أرغب في التمسّك بما أحبّه، وبما أعرفه، وأنّ هذا يغيّر الطريقة التي أنظر بها إلى ماكس. لا أعلم ما الذي يجري. هل تغيّرت علاقتنا حقّاً أم أنّها عادت إلى ما كانت عليه، إلى عدم الاستقرار الذي ميّز بداياتنا؟ نعم، عدم الاستقرار، أعتقد أنّ هذا هو المصطلح الصحيح. فخلال الأسابيع القليلة الماضية، كلّما فكّرت في ماكس، شعرتُ بعدم استقرار، وانتابني الخوف، ليس ممّا سأقوله، بل ممّا لا أجرؤ على الاعتراف به. والمشكلة أنّه هو مَن أبوح له عادة بمكنوناتي عندما يتملّكني الخوف.

قضينا على التاكو، وأصبحت الغواكامولي مجرّد ذكرى، فيما تراكمت الأطباق في الحوض، لأنّنا كسولان جدّاً بحيث أبينا وضعها في غسالة الأطباق. أعارني ماكس سترة أكبر من مقاسي بثلاث مرّات لأنّني ما زلت أشعر بالبرد، على الرغم من أنّه أغلق الأبواب الزجاجيّة أخيراً. فجلستُ مرتاحة على الأريكة الجلدية الضخمة، ودفنت قدميّ تحت ساقيه، ثمّ أخذتُ رشفة أخرى من الشراب. كنت في حالة من الاسترخاء التامّ الذي يجعل الحياة تبدو أقلّ صعوبة، من دون الشعور المزعج بفقدان السيطرة.

وضع ماكس كأسه على طاولة القهوة، ثمّ أخرج قدميّ من تحت ساقيه وأحاطهما بيديه الكبيرتين. لطالما فتنني حجمُ يديه. في أوقات الفراغ، يمارس ماكس تسلّق الصخور والنجارة. وحتّى من خلال جواربي، يمكنني الشعور بخشونة مألوفة في راحتيه. ضغطت أصابعه على قوس قدميّ، فأغمضتُ عينيّ لأستمتع باللحظة أكثر.

«أما زلت ترغبين في النوم».

«أنا بأحسن حال الآن».

«أنتِ دائماً بأحسن حال».

فتحتُ عينيّ، غير أنّه لم يكن ينظر إليّ، بل يركّز على مهمّته. كان من الصعب أن أعرف ما إذا كان جادّاً أم أنّه ما زال يحاول تحسين مزاجي. ليست هذه المرّة الأولى التي يطلق فيها ماكس تعليقاً كهذا، فهو يخبرني دائماً أنّني المرأة المثالية، حتّى لو أنّ بريقاً من الفكاهة في عينيه يرافق المجاملة عادة.

«أنت لا تساعدني الآن».

نظر إليّ أخيراً. كثيراً ما أحاول أن أنسى كم يفتنني لون عينيه، وهذا صعب حقّاً.

«ماذا، ألا أساعدك؟ ألا يفيدك ذلك؟».

إنّه لا يفهم، كلّا، لا يفهم، وعليّ أن أتغاضى عن ذلك، لكنّ هذا الإحساس يحرق معدتي ويجعل الدم يغلي في عروقي. فجأة، شعرت بالاختناق في سترته التي تفوح برائحته، في شقّته التي تشبهه كثيراً، وتحت نظرته التي تزن نصف طنّ. فوددتُ لو يشيح بنظره بعيداً، أو لو أتمكّن أنا من النظر إلى شيء آخر. كيف وصلنا إلى هنا؟ لا بل كيف لم نصل إلى هنا من قبل؟

«كام، ما الذي يحدث؟».

«لا شيء، لماذا تسأل؟».

«لأنّني أعرفك».

«حسناً، ما دمتَ تعرفني، أخبرني أنت بما يحدث».

«لا أستطيع قراءة أفكارك الآن».

«وهل تعتقد أنّك تقرأ أفكاري عادة؟».

«نعم».

«هذا غرور».

هزّ كتفيه. لم تتوقّف أصابعه عن العمل، بل على العكس من ذلك، أصبحت أكثر رقّة، تنزلق على قدمي وترتفع إلى ساقي بخفّة، تحت سروالي الجينز. كانت بشرته دافئة.

«لطالما كنتُ مغروراً يا كام، وهذا لن يتغيّر اليوم».

«لا، هذا مؤكّد».

«لماذا أشعر إذاً أنّ أشياء أخرى تتغير؟».

«ماكس...».

«هيّا».

«لا أريد التحدّث عن ذلك».

لحسن الحظّ، لم يجبرني على شرح ما أعنيه بكلمة «ذلك»، فقد كان يعرف بالفعل ما أقصده.

«لماذا ترفضين التحدّث عن ذلك؟ أنت تحبّين الحديث عن الأمور التي تتعلّق بالمشاعر».

«بلاغتك تسبّب لي الاضطراب».

«لكن أنا أبذل جهداً هنا».

«أعلم، أعذرني. أنا في حيرة من أمري وحسب».

«أنا أيضاً».

في الواقع، لم أتوقّع ذلك. صرف جوابه انتباهي للحظة عن يديه.

«منذ متى وأنت حائر؟».

«أعتقد أنّني حائر منذ أن عرفتك».

تحرّك على الأريكة، ثمّ أبعد ساقيّ، وأخذ كأسي من بين يديّ ووضعه على الطاولة. أصبح قريباً الآن، قريباً جداً... وبعيداً جدّاً أيضاً. كان الأمر دائماً على هذا النحو معه. الرغبة في أن يكون معي، لي أنا وحدي، مع علمي أنّه من الأفضل إبقاؤه على مسافة معقولة لكي لا أخسره.

هذه الليلة، أردتُ أن ألمسه، أن ألمس وجهه، ولحيته النامية، وبشرة عنقه والجلد الناعم جدّاً تحت أذنه. سبق أن لمست ماكس من قبل، فأنا ألمسه طوال الوقت، لكن الليلة، في الهواء الدافئ لفقاعتنا، أردتُ أن ألمسه بشكل مختلف.

«بإمكانك أن تفعلي ذلك، كما تعلمين».

بدا صوته أكثر انخفاضاً، كما لو أنّ شيئاً يسدّ حلقه.

«ماذا؟».

«أن تلمسيني».

«لا أعرف عمّا تتحدّث».

«لم تكوني يوماً بارعة في الكذب».

تردّدتُ في الإجابة. تخيّلتُ لو أنّه يأخذ يديّ في يديه ويضعهما على وجهه. سيكون ناعم الملمس، وسيخزني قليلاً. سيكون مثل ماكس وفي الوقت نفسه، لن يكون مثل ماكس، ليس كما أعرفه على أيّ حال. فمن هذه الناحية، لا أعرف شيئاً عنه بعد. ذلك أنّني لم ألمسه قطّ بالطريقة التي يسمح بها شخص ما لنفسه بلمس شخص آخر عندما تنهار الحواجز.

تحرّك، أو تحرّكتُ، أو تحرّكنا كلانا، وفجأة، صدم أحدنا كأسي الموضوع على الطاولة. صدر ضجيج هائل، بينما تحطّم الزجاج على الأرض، وانسكب السائل منه. في الواقع، لم يكن الضجيج عالياً جدّاً، لكنّه شغل كلّ المساحة.

«تبّاً».

قفزتُ كما لو أنّني احترقت، فحاول ماكس الإمساك بمعصمي.

«هذا ليس مهمّاً حقّاً، اجلسي».

«يجب إزالته وإلّا سيلتصق».

ترك ذراعي وتوجّهتُ إلى المطبخ، بينما شعرت وكأنّني أتنفّس تحت الماء. شيئاً فشيئاً، بعد أن ابتعدت يداه عنّي وانطفأت النار في أحشائي، بدأت أرى بوضوح أكبر. ناداني ماكس من مكانه على الأريكة: «كام...».

«لا».

«هل يمكننا التحدّث؟».

عدت بمناديل ورقيّة ونظّفت الفوضى بصمت، فقد أرعبتني القوة المحتملة للكلمات التي قد أنطق بها. نهضتُ، ورميتُ المناديل، ثمّ توجّهتُ إلى باب المنزل. لا يمكنني البقاء هنا، ليس في هذه الحالة، فأنا لن أتمكّن من مقاومة عينيه الكبيرتين الخضراوين المذهّبتين وهما تتوسّلان إليّ لإعطائنا فرصة. شعرتُ بنظرته تحرق عنقي، ولم أجرؤ على الالتفات إليه.

«أنت ذاهبة».

لم يكن سؤالاً، غير أنّني أجبت على أي حال.

«أنا ذاهبة».

«لمعلوماتك، أنت الخائفة هذه المرّة. أنت من اخترتِ الرحيل».

«لمعلوماتك، أنتَ من يختار، مرّة أخرى، عدم إيقافي».

وهنا رحلتُ، حتّى قبل أن أعطيه الوقت للردّ.

ماكس

كانت المرّة الأولى التي أوشكت فيها علاقتنا أنا وكام أن تتطوّر في الليلة نفسها التي انفصلَت فيها عن فيكتور. كانت قد واعدته طويلاً، ما يزيد عن عام بقليل، ولم يسبق لي أن رأيت صديقي بهذه الحال من قبل. في الماضي، كان فيكتور متقلّباً، يتنقّل من امرأة إلى أخرى، من دون أن يكتفي لا من النساء ولا من تحطيم القلوب. في البداية، خفت على كام، خفت على تلك الفتاة التي ولد بيني وبينها رابط بطريقة مفاجئة وغير متوقّعة. فبعد لقائنا الأوّل، بدأنا نتحدّث مع بعضنا البعض. في البداية، كان ذلك فقط عندما نرى بعضنا في النزهات الجماعية، والسهرات، وحفلات الشواء. ثمّ ما لبثنا أن أضفنا بعضنا البعض على فايسبوك، وبدأنا نتبادل الرسائل الصغيرة هنا وهناك، فضلاً عن النكات، والصور الجيّدة. كانت تضحكني، وتساعدني على الاسترخاء، كما تجعلني أرغب في إضحاكها. من جانبي، شعرتُ أنّ مجرّد كوني على طبيعتي كان كافياً. إنّه شعور يصعب شرحه، شيء يشبه الرغبة في النجاح من دون الخوف من الفشل.

في البداية، اعتقدت فلورانس، حبيبتي في ذلك الوقت، أنّه من اللطيف أن أحاول التقرّب من حبيبة صديقي، وأن أبذل جهداً لأجعلها تشعر بالراحة (أو على الأقلّ تظاهرَت بذلك، لكي تبدو فتاة منفتحة). نعم، لقد استخدمَت بالفعل كلمتَي «لطيف» و«بيبة». كانت حبيبتي السابقة فرنسية، ذات ساقَين طويلتين ومزاج صعب. فجأة، تحوّل سلوكي اللطيف إلى سلوك مزعج، وبدأت تسألني لماذا أبتسم كالأحمق وأنا أنظر إلى هاتفي. صحيح أنّني كنت أخبرها الحقيقة في البداية، ولكن لاحقاً أصبح من الأسهل الكذب عليها. فبنظري، لم يكن ثمّة شيء بيني وبين كام، لا شيء سوى تواطؤ طبيعي، وقد سئمت من الاضطرار للدفاع عن نفسي كلّما تحدّثتُ معها. وعندما نشعر أنّ الكذب

أبسط من قول الحقيقة، فهذا يعني أنّنا وصلنا إلى نقطة اللاعودة. هكذا، أعلنتُ لفلوارنس أنّ كلّ شيء بيننا قد انتهى.

لم أترك حبيبتي أوّلاً لأحفز كام على اتّخاذ قرار، ليس عن وعي على الأقلّ. لم نتحدّث في المسألة على الفور، وبعد ذلك، في وقت لاحق من علاقة الصداقة التي جمعت بيننا، توصّلنا إلى اتّفاق صامت على أنّه، لكي نكون صديقين، علينا أن ندفن هذا الجزء من حياتنا. لا أدري ما إذا كنت لا أزال مقتنعاً بذلك، ولكن من الصعب خرق اتّفاق، حتّى عندما لا يكون المرء متأكّداً من أنّه يعرف الشروط.

بعد فترة وجيزة من انفصالي عن فلورانس، بدأنا نتحدّث في وقت متأخّر من الليل على فايسبوك. كنّا نناقش حياتنا وطموحاتنا ونكشف أجزاء صغيرة منّا هنا وهناك، وأموراً خاصّة حاولنا إقناع أنفسنا بأنّها تافهة. حسناً، لا بدّ من الاعتراف أنّه ليس بالأمر التافه أن تحدّثك حبيبة صديقك عن أحلام حياتها بينما هو يشخر بجانبها. كنت أشعر أنّ أصابعي تحترق في نهاية محادثاتنا، وكذلك قلبي. وتلك هي المرحلة التي أصبح فيها الأمر خطيراً. بدأ الوضع يصبح محرجاً عندما كنّا نرى بعضنا البعض في مجموعة، فأشعر كأنّني مراهق يخفي علاقته الأولى عن والديه، ويُدخل الفتاة من نافذة القبو بينما يعتقد أنّ الجميع نائمون. شعرت كأنّني مراهق أيضاً عندما كانت تجتاحني مشاعر الغيرة كلّما وضع فيكتور يده على أسفل ظهرها، أو مرّر وجهه في شعرها. كنت أشاهد كام وهي تبتسم له، وأتمنّى حقّاً لو ترغب في أن أكون أنا مكانه. أنا، أنا، أنا.

شعرت بالخوف من أفكاري الغاضبة واليائسة، وتصرّفت تماماً كما يفعل شابّ في الثانية والعشرين من عمره عندما يشعر بالخوف. فررتُ هارباً.

كففتُ عن الذهاب إلى الأنشطة الجماعية وعن الردّ على رسائل كام، التي كانت مرحة في البداية، وسرعان ما أصبحت أكثر قلقاً. كما كففتُ عن الردّ على رسائل فيكتور. فقد تأكلني الشعور بالذنب تجاه صديقي القديم، وساهم غياب كام من حياتي في سقوطي. فقمت بالتسجيل في تطبيق تندر، وصرت أخرج كثيراً. هكذا، توالت كؤوس الشراب والليالي القصيرة مع فتيات لا يعنين لي شيئاً، واستمرّ هذا الوضع لمدّة شهرين. مرّ شهران قبل أن أتلقّى رسالة من كام، في وقت متأخّر من

ليلة الجمعة. كنت في منزلي في تلك الليلة، وهو أمر نادر الحدوث. بالطبع، كانت لديّ النيّة للخروج، وللقاء فتاة أيضاً، ولكنّني علّقت كلّ شيء عندما نظرت إلى شاشة هاتفي ورأيت رسالتها.

كام: لقد انفصلت عن فيكتور للتوّ.

عندما قرأتُ تلك الرسالة، كان يجدر بي الاتّصال بصديقي على الفور، والسؤال عن حاله. لقد كان أعزّ أصدقائي، ومن واجبي الوقوف بجانبه في محنته. وما كان يجدر بي خصوصاً أن أدعو حبيبته السابقة، ولم يمض على انفصالهما عشر دقائق، للمجيء إليّ. غير أنّني، في تلك اللحظة، كنت بحاجة إلى رؤيتها وحسب، وعلى الفور. فبعد أسابيع من تجاهلها، بات بإمكاني أخيراً النظر إليها بعينيّ، من دون أن أشعر بنظرات فيكتور وهي تحرقني من الخلف. لم أفكّر في العواقب، لم أفكّر في شيء سوى أنّني أريد رؤية كام في تلك الليلة، وإلّا سأنفجر. كنت لا أزال شابّاً حينذاك، ومنذ ذلك الوقت، تعلّمت الكثير عن التوقيت الصحيح للأمور.

وصلَت إلى منزلي وكانت أكثر هدوءاً بكثير ممّا توقّعت. لم يبدُ لي أنّها بكت، على الرغم من بعض الشحوب الذي طغا على وجهها، كمن أصيب بصدمة بعد تعرّضه لحادث. عرضتُ عليها زجاجة من شراب الشعير، واعتذرتُ لعدم وجود كأس نظيفة. كنت في ذلك الوقت أعيش في شقّة أصغر بكثير، من دون غسّالة أطباق. ابتسمَت وقالت لي إنّها تفضّل الشرب من الزجاجة على أيّ حال. لم نشرب كثيراً، فذلك لم يكن هدفنا في تلك الليلة.

قلت أخيراً: «لا أدري حقّاً ماذا أقول».

كان الوضع غريباً لأنّنا كنّا نشرب بصمت، وكان ينبغي أن أكون منزعجاً ومضطرباً، في حين أنّني لم أشعر بهذا الهدوء منذ أشهر. أخيراً، كسرت كام الصمت.

«لست متأكّدة من أنّ وجودي هنا فكرة جيّدة».

«حقّاً؟».

آلمني ذلك، فقد تمنّيت أن تكون مرتاحة. ولا بدّ أنّها قرأت أفكاري على وجهي. أخذَت جرعة طويلة أخرى. كانت زجاجتها على وشك الانتهاء وكنت قد أخرجت زجاجتين أخريين من باب الاحتياط. قد لا أكون بارعاً في مجال التهدئة، لكنّني أملك الكثير من الشراب.

«كلّا، ولكنّني أتيت على أيّ حال».

فهمتُ أنّها تلمح إلى أنّ فيكتور سينهار لو عرف بوجودها عندي. فهمتُ أيضاً أنّ لي يداً إلى حدّ ما في هذا الانفصال، وشعرتُ بارتفاع الصفراء في حلقي عندما قالت ذلك. لكن على الرغم من كلّ شيء، بقيتُ حذراً. فقد ابتعدتُ عنها لمدّة شهرين خشية أن تغلب نزوات قلبي وجسدي على صداقتي مع فيكتور. وهذا ما وصلتُ إليه: أنا جالس في مطبخي القذر، أتحدّث مع الفتاة التي حطّمت للتوّ قلب صديقي، الفتاة التي لم أستطع حتّى أن ألومها.

قلت أخيراً: «ربّما كنتِ على حقّ، في النهاية».

«أنت تعلم أنّك أنتَ من دعوتني».

«نعم، هذا لأنّني أحمق».

رفعت كتفيها بكآبة.

«لكنّني لا أجد ذلك حماقة...».

نظرتُ إلى الأسفل. كنت أفكّر في فيكتور، الجالس وحيداً في منزله، فشعرت بتشنّج في معدتي.

«ماذا جرى؟».

قالت كام: «أنا متأكّدة من أنّك لا تريد أن تعرف».

غاصت بنظراتها في عينيّ، إلى أن شعرتُ وكأنّ عينيها تتشبّثان بجوفي. تمكّنتُ أخيراً من القول: «أياً يكن ما جرى... كيف حاله؟».

كان عليّ أن أسأل، من باب الشكليّات. فألقت عليّ نظرة باردة كمياه بحيرة في الشتاء، وباللون نفسه أيضاً.

«حاله تماماً كما تتخيّل».

«ألم يكن يتوقّع ذلك؟».

«لا أعتقد، لا...».

راحت تعضّ إبهامها بقلق. لم يبد عليها أنّها انتهت، فانتظرتُ أن تستأنف الحديث لأنّني لم أعرف ماذا أضيف. شعرت في تلك اللحظة وكأنّني أشهد على حادث سيّارة في وقت حدوثه. ومع أنّني لم أرغب حقّاً في المشاهدة، إلّا أنّني لم أستطع أيضاً إبعاد نظري.

«في الواقع، أظنّ أنّه الوحيد الذي لم يتوقّع ذلك. أعني، أعتقد أنّه كان يعلم أنّ الانفصال قد يحدث يوماً ما، لكن ليس بعد، ليس حالاً».

«لا أفهم... ألم تكن أموركما على ما يرام؟».

«كلّا، ليس حقّاً».

«منذ متى؟».

توقّفَت عن عضّ إصبعها.

«منذ اختفائك».

لم تجرؤ على النظر إليّ وهي تخبرني بذلك. استنشقتُ الهواء بطريقة مفاجئة، وأشحتُ بنظري بعيداً أنا الآخر. شعرت وكأنّني أختنق، كما لو أنّ رئتيّ لا تتّسعان لما فيه الكفاية من الهواء، أو كأنّ أحدهم يلكم صدري وهو يردّد «الذنب ذنبك». في تلك اللحظة، لو كنت أقلّ خوفاً، لو عرفتُ إلى أيّ حدّ ستصبح كام مركزيّة في حياتي، لنظرتُ إليها، ولذهبت إليها. لداعبت وجنتيها، اللتين أراهما بارزتين وتراهما هي كبيرتين، ولمرّرت أصابعي على كلّ الأماكن التي رغبتُ كثيراً في لمسها. لو علمت، في تلك اللحظة، أنّ عدم فعل ذلك يعني أنّني قد لا أفعل أبداً، لكنت تجرّأت. لكنّني لم أكن أعلم، بل انتابني الخوف واعتقدت أنّ المصالحة ما زالت ممكنة بينها وبين صديقي. لم أعرف إلّا لاحقاً أنّ فيكتور كان متأكّداً من أنّ كام خانته معي وأنّه، على الرغم من كلّ جهودي، لن يسامحني أبداً.

تمتمَت: «أنت لا تقول شيئاً».

كنت أحدّق إلى الطاولة منذ مدّة.

«لا أدري ماذا أقول يا كام».

«لماذا دعوتني إلى هنا الليلة؟».

«لأرى كيف حالك».

«آه...».

لا ينبغي أن أنظر إليها، وإلّا فسينهار كلّ شيء.

«ظننتُ... حسناً...».

تردّدَت. إمّا الآن أو أبداً. إذا لم أقل شيئاً، إذا تركتها تتكلّم، فسنسقط كلانا، وقد خفت من الهاوية. لذلك نظرتُ إليها قائلاً: «ماذا ظننتِ يا كام؟ أنّك ستصلين إلى هنا، وسترتمين بين ذراعيّ كما لو أنّ شيئاً لم يكن؟ ربّاه، إنّه أعزّ أصدقائي».

رأيتها تأخذ نفساً عميقاً، وتخسر بعضاً من الدم الذي ما زال يلوّن خدّيها، فعلمتُ أنّني تماديت كثيراً. أصدر الكرسيّ ضجيجاً هائلاً عندما نهضَت. وحتّى هذا اليوم، أشعر بشيء من الغثيان عندما أفكّر كيف دعوتها إلى منزلي لأجعلها بعد ذلك تشعر بالذنب لمجيئها. لكنّني كنت قد فقدت اتّزاني. وكانت الطريقة الوحيدة لعدم عناقها تتمثّل في مهاجمتها ودفعها بعيداً، وقد نجحتُ في ذلك. تبعتُها بنظراتي بينما كانت تتوجّه إلى الباب، بخطوات غاضبة تفوق طولَها. أمّا أنا، فلم أتحرّك من مكاني. همستُ قائلاً: «كام...».

لم يكن في صوتي أيّ قناعة، لا بل بدوت مسروراً تقريباً بذهابها. ليس مسروراً، كلّا، بل مرتاحاً. ولم أكن في حياتي جباناً بقدر ما كنت في تلك اللحظة. التفتَت إليّ قائلة: «لا أعرف بماذا فكّرتُ يا ماكس. لكن لو علمتُ أنّ هذا ما سيحدث، لما أتيتُ حتماً».

صفقَت الباب خلفها بقوّة بحيث اهتزّت جدران شقّتي، وخشيت أن ينهار عليّ كلّ شيء. ولو حدث ذلك، لما قاومت. فما دمت جباناً، لِأكن كذلك حتّى النهاية.

كام

عندما عدت إلى منزلي، فتحت لنفسي زجاجة أخرى من شراب الشعير وارتميت على أريكتي على نحو شبه درامي، خارج عن سيطرتي تقريباً، لأنّني في الواقع، لم أكن بحاجة على الأرجح إلى زجاجة أخرى. فتحت تندر على هاتفي لأنّني حمقاء أيضاً، ولأنّه من الأسهل التعامل مع غرباء في كتالوغ من الوجوه عوضاً عن التعامل مع مشاعري تجاه ماكس. فقد أردت نسيان الإحساس بيديه الدافئتين على قدميّ، والنار التي التهمت أحشائي، والشعور الذي ينتابني هذه الأيّام أنّه ينبغي أن يكون هو ولا أحد سواه. لا يمكنني أن أسمح بذلك، والمهرب الوحيد أمامي يتمثّل في العثور على يدين غريبتين تعملان على محو كلّ آثار هذه الأمسية على بشرتي وفي رأسي.

وتلك وظيفة تندر. فهذا التطبيق حافل بالأيادي الجاهزة لتبديد الذكريات السيّئة (غالباً لإنشاء ذكريات أخرى أسوأ، ولكن تلك قصّة أخرى). يُعتبر تندر عالماً خطراً عندما يدخله المرء على أمل تجميل مستقبله. غير أنّ ما أريده هذه الليلة كان مجرّد تخفيف وطأة حاضري. كنت بحاجة إلى جرعة كبيرة من اللهو الجارف والعابر أختتم به ليلتي.

كان لديّ تقارب مع شخص يدعى جوردان في اليوم الفائت، وعندما كنت أتناول القهوة مع فاليري، لم أتكبّد حتّى عناء إلقاء نظرة على جوردان ذاك. كانت مفاجأة سارّة على الرغم من معاييري العالية للغاية على تندر. أعلم أنّ هذا يبدو متناقضاً، لكنّني سأوضح قصدي. إذا كان لدى الرجل صور بصدر عارٍ، فهو مرفوض. وإذا كان عليّ أن أخمّن من يكون في صورة تضمّ ثمانية شبّان، فهو مرفوض أيضاً. أمّا إذا كان يشبه إحدى شخصيّات «مدرسة الحياة»، أو يضع أكثر من سلسلة حول رقبته، أو يؤدّي حركة مشينة أمام الكاميرا، فهو مرفوض حتماً!

بالعودة الى جوردان، كان في الثالثة والعشرين من عمره، أشقر الشعر، أسود العينين، يرتدي قميصاً عادياً (ليس بياقة مفتوحة بشكل زائد)، من دون وشم على عنقه، ومن دون صورة بلا قميص أمام المرآة. بدا قصير القامة، ولكنّه قويّ البنية، يدرس الهندسة، ويحبّ ممارسة الرياضة في الهواء الطلق. لم يكن يشبه ماكس على الإطلاق، وهذا معيار أساسيّ بالنسبة إليّ هذه الليلة.

بدأتُ الحديث بطريقة مباشرة إلى حدّ ما، لأنّ الوقت يتأخّر، ولأنّني كنت بحاجة إلى تشتيت انتباهي. علاوة على ذلك، لم أكن أكترث حقّاً لما يفكّر فيه.

كاميل: تبدو شابّاً لا يرفض مساعدة فتاة في محنة.

وجدتُ جملتي مضحكة، ومبتكرة، ومثيرة للاهتمام. ولو كنت مكانه لأجبت. مع ذلك، أرسلت الرسالة نفسها إلى شابّين آخرَين، تحسّباً. شعرت أنّني مثيرة للشفقة وأنا أقوم بذلك، ولكن بما أنّ هدفي عدمُ البقاء وحيدة على أريكتي أتأمّل كارثة حياتي، فقد كان عليّ أن أفعل كلّ ما يلزم.

أخيراً، كان جوردان هو الذي أجاب أوّلاً، وقد أفرحني ذلك، لأنّ مشاعري كانت إيجابية تجاهه. فالشابّ الثاني كان أحمر الشعر تقريباً والآخر أخضر العينين. وهذه مواصفات قريبة جدّاً من الواقع الذي أحاول الهرب منه.

جوردان: هذا يعتمد على نوع حالتك الطارئة. إذا كنّا نتحدّث عن إطار مثقوب، أو مرطبان مخلّل مغلق بإحكام، أو حتّى عطل كهربائي، فأنا الرجل الذي تبحثين عنه.

كان مضحكاً، وبدا لي ذكيّاً جدّاً، لا سيّما وأنّه لم يرتكب أيّ أخطاء. كان على الأرجح أكثر من مناسب لما أحتاج إليه هذه الليلة، كما هو الحال عندما نشتري زجاجة من الشراب الفاخر للاحتفال بالمركز الرابع. ولكن لا بأس، ألا يحقّ للفتاة أن تدلّل نفسها من حين إلى آخر؟

كاميل: إذا صحّ فهمي، ينحصر اختصاصك في العمل اليدوي؟

جوردان: أفضّل أن أعرف ما يدور في ذهنك قبل أن أجيب... فأنا أؤدّي عملاً عالي الجودة، ولا أوافق على العمل ما لم أكن واثقاً من أنّني قادر على الإرضاء.

حسناً، جوردان سريع البديهة. ومن الواضح أنّنا نتحدّث اللغة نفسها.

كاميل: وهل تعتقد أنّني أستطيع تحمّل تكاليف خدماتك؟ فأنا طالبة.

جوردان: أنا مطلوب حقّاً ولا أعمل بثمن بخس، ولكنّني من أشدّ المؤيّدين للمقايضة.

أتساءل عمّا كان يفكّر فيه عندما قال «أنا لا أعمل بثمن بخس». أودّ لو يراه ماكس، لا شكّ في أنّه سيضحك. لكن لا، لن يضحك حقّاً.

كاميل: أنت إذاً ماهر في حلّ المشاكل.

جوردان: #مهندس.

كاميل: وماذا تفعل هذا المساء، أيّها المهندس؟

جوردان: كنت أنتظر أن تراسليني.

كاميل: طبعك سلس للغاية بالنسبة إلى مهندس.

جوردان: لديّ جوانب خشنة أيضاً، لا تقلقي.

بعد ساعتين ونصف، استيقظت في سريره ولممت ملابسي المنتشرة في أنحاء الغرفة. كان جوردان ينام كالطفل، بفم مفتوح. عرض عليّ النوم عنده، واقترح أن نذهب لتناول الإفطار في الصباح في مطعم صغير ولطيف وزهيد التكلفة عند ناصية الشارع الذي يقطن فيه. فشكرته على اهتمامه بميزانيتي كطالبة، ولكن ليست كلّ الأماكن تقبل المقايضة كما فعل هو بكلّ بلباقة. فضحك كثيراً قبل أن يمدح طبق البيض الذي يقدّمه ذاك المطعم. لا أعرف ما إذا كان يعتقد حقّاً أنّنا سنذهب لتناول الفطور معاً، بوجهي الذي ما زال يحمل آثار مساحيق التجميل من الليلة السابقة، وشعري المشعّث، وهو بالوهج الذي يضيء وجه الشابّ بعد أن يكون قد أمضى ليلته مع فتاة... أملت إلى حدّ ما أن يعتقد ذلك حقّاً، كما أملت في الوقت نفسه ألّا يفعل. نعم، لأنّ ذلك سيجعلني أشعر أنّني أقلّ «قذارة». كلّا، بل لأنّني لست مستقرّة عاطفياً بما فيه الكفاية للتسبّب بخيبة أمل لشخص آخر هذه الليلة.

بشكل أو بآخر، تظاهرت بالنوم وتركته يدلّك ظهري بنعومة نادراً ما يجدها المرء في علاقة لليلة واحدة.

لا بدّ من الاعتراف بذلك لجوردان، فقد كان بالضبط كما وصف نفسه: سلس وخشن في آن. لم تكن تلك أفضل علاقة عرفتها، ولكن لو رافقتها بعض المشاعر، لكانت كذلك ربّما. فجوردان رجل نبيل يعرف كيف يتصرّف، ولكنّ العلاقة كانت تفتقر إلى الحبّ، وهذا يستغرق وقتاً لم أمنحه إيّاه.

في سيّارة أوبر التي كانت تقلّني إلى المنزل، لاحظت أنّني تلقّيتُ مكالمتين فائتتين من ماكس على هاتفي، وهذا ما جعلني أرغب فجأة في البكاء. فعزوتُ السبب إلى الشراب، على الرغم من أنّ آثاره بدأت تزول، وأعدتُ هاتفي إلى حقيبتي. على الأقلّ، لم يتبقَّ لماكس أثر من ليلة أمس. شعرت بالغرابة، كما لو أنّني أصبحت شخصاً لا أعرفه. فهبّ جانبي العقلاني لإنقاذي: ماكس ليس حبيبي، ولا يجب أن أشعر بالذنب. لديّ كلّ الحق بالاستمتاع بالمشاعر التي منحني إيّاها جوردان. أعلم أنّها كانت علاقة عابرة، ولا جدوى من تجميلها أو تغليفها بكلمات حلوة للتظاهر أنّها لم تكن مجرّد رغبة في جرعة من الأدرينالين لنسيان كلّ ما يزعجني. والمشكلة أنّ أثرها لا يدوم طويلاً، ولن تُجدي سوى في نسيان الألم. إنّها كالمخدّر الذي يعالج المشاكل السطحية ولكنّه لا يشفي عندما يكون الألم عميقاً.

وماكس هو ألمي العميق، عميق إلى حدّ أنّني لن أجده أبداً.

ماكس

خنت حبيبتي السابقة مرّة واحدة. أكره التفكير في الأمر، لأنّني أكره فعلتي تلك. فعندما حدث ذلك، لم تكن الأمور تسير على ما يرام بيني وبين فلورانس منذ مدّة. على أيّ حال، ولدى التفكير في الأمر، لا أعرف ما إذا كانت أمورنا على ما يرام حقّاً في السابق. التقينا في العام الأخير من الجامعة. كانت تدرس العلاقات العامّة مثلي، وأكذب إن زعمت أنّ حديثها هو الذي جذبني أوّلاً. فقد كانت فلورانس رائعة الجمال. وصلَت حديثاً من فرنسا، وسرعان ما ألهبت قلوب وأجساد كلّ الشباب في فرع الاتّصالات. معها، بدأ الأمر كتحدٍّ.

في اليوم الأوّل من الفصل الدراسي، في عامي الأخير في الجامعة، دخلتُ القاعة ولاحظت وجودها على الفور. كانت جالسة في الصفّ الأمامي، دفتر ملاحظاتها أمامها، تنتظر بصبر بدء الدروس. من الواضح أنّها لم تكن تكترث لكلّ الشباب المفتونين بها. لاحظتُ أيضاً أنّ أحداً لم يجلس لا عن يمينها ولا عن يسارها، إذ كانت من نوع الفتيات الجميلات إلى حدّ الترهيب، ومن الواضح أنّها تدرك جيّداً أثرها على من حولها. كانت تعلم أنّها في موقع السيطرة. فابتسمتُ في نفسي، مصمّماً على تغيير هذا الواقع.

من دون تردّد، ذهبتُ وجلست بجانبها. لم ألق عليها التحيّة، بل بدأت بمراسلة فتاة. أردتُ أن ترى ما كنت أكتبه عندما انحرف نظرها نحوي تلقائيّاً، كما يحصل دائماً عندما ينشغل أحدهم بهاتفه بجانبنا. شعرت بنظراتها المحتارة عليّ عدّة مرّات، لكنّني لم أنظر إليها. لم أفعل ولا حتّى مرّة واحدة. فقد تعلّمتُ ذلك جيّداً منذ أيّام ستيفاني.

استغرقت جولة الترويض ثلاثة أسابيع، بمعدّل مرّتين في الأسبوع. لاحظتُ أنّها تصل أيّام الاثنين ومعها قهوة بالحليب، دوناً عن أيّام الأربعاء. فأتيت في صباح أحد أيّام الأربعاء، حاملاً فنجاناً من القهوة بالحليب. ومن دون أن أقول شيئاً، وضعت القهوة أمامها، ثمّ انحنيت فوق هاتفي. أعتقد أنّها فغرت فاها من شدّة المفاجأة. يوم الاثنين التالي، أحضرت لي واحداً، وكتبت على جانبه رقمها. ذهبنا لتناول شراب، وكانت صحبتها جميلة، أكثر بكثير ممّا تخيّلت. فسررت عندما اكتشفت أنّ أجمل ما فيها لا يظهر للوهلة الأولى. وفي تلك الأمسية، لم أشعر بالوقت وهو يمرّ.

لم أعانقها في تلك الأمسية الأولى، بل رافقتها إلى منزلها، على الرغم من أنّه كان بعيداً عن منزلي. اقتربت منّي، ونظرت إليّ من تحت رموشها الطويلة. ومع أنّني كنت على وشك الاستسلام، إلّا أنّني تمالكت نفسي وعُدت إلى المنزل. شعرت بامتنان كبير على خبرتي عندما وصلتني منها رسالة بعد بضع دقائق من رحيلي.

فلورانس: لم أعتقد أنّك سترحل بهذه السرعة، لقد خاب أملي قليلاً.

ماكس: وهل ظننتِ أنّني شابّ سهل المنال إلى هذا الحدّ؟ أنت تهينينني.

فلورانس: سهل المنال! ألا تعتقد أنّنا ناورنا بما فيه الكفاية؟

ماكس: أوه كلّا، إنّها البداية وحسب.

أصبحت علاقتنا جادّة بعد أسبوعين من ذلك.

من بين كلّ الفتيات اللواتي عرفتهنّ، كانت فلورانس أكثر فتاة بذلت جهداً من أجلها. لذا، كان من المنطقيّ بالنسبة إليّ الحفاظ عليها. علاوة على ذلك، كانت أجمل فتاة في الجامعة، ولم يكن لديّ أيّ سبب للبحث عن فتاة أخرى. غير أنّني لم أحبّها حقّاً. شعرت بمودّة تجاهها، نعم، ولكنّ علاقتي بها جعلتني أفهم الفرق الدقيق بين الرغبة والحبّ. نعتقد أنّنا نعرف هذا الفرق، وأنّه بسيط، في حين أنّه أكثر تعقيداً بكثير ممّا نظنّ. فالرغبة قابلة للتبادل، ويمكن أن تتضاعف. كما يمكننا أن نرغب بأكثر من فتاة في وقت واحد، ولكن لا يمكن للمرء أن يحبّ سوى فتاة واحدة. حسناً، ربّما يستطيع البعض، على عكسي أنا. فأنا لن أقدم على خيانة فتاة أحبّها، حتّى لو حدث وخنت فتاة تعجبني.

وهذا ما حدث على أيّ حال، ولمرّة واحدة فقط. تبّاً كم أكره أن أكون شابّاً من هذا النوع، الشابّ الذي خان حبيبته. بصراحة، أكره أيضاً عدم إخبار كام بذلك.

إنّها نذالة، أليس كذلك؟ كان بإمكاني إخبارها القصّة مائة مرّة، لا سيّما وأنّ الموضوع قد طُرح بيننا، ليس موضوع إخلاصي أنا، بل الإخلاص بشكل عامّ، ولمرّات لا يمكنني إحصاؤها. فأنا أعلم أنّ كام تعرّضت للخيانة، وأعلم أنّ هذه الناحية مهمّة بالنسبة إليها. أنا لا أقصد أنّ الأمر ليس مهمّاً بالنسبة إليّ، بل هو مختلف وحسب. فثمّة مجموعتان من الناس: الميّالون إلى الخيانة وغير الميّالين إلى الخيانة. عندما لا نتعرّض للخيانة قطّ، حتّى لو حاولنا أن نتخيّل ما سيسبّبه لنا ذلك في حال حدوثه، إلّا أنّ الثقة تبقى سليمة، في العمق. ولكن عندما نتعرّض للخيانة، فإنّنا نفقد جزءاً من تلك الثقة، إذ يكون الشخص الذي خدعنا قد سلبنا إيّاه ولا نستعيده أبداً. وأعتقد أنّني لم أرغب يوماً في أن تعرف كام أنّني سلبت فلورانس جزءاً من ثقتها وأضعته، جزءاً لم أستطع أن أعيده إليها. فهي تقدّرني كثيراً، وسأحزن إذا شوّهتُ تلك الصورة. هل خداع شخص ما، ولو لمرّة واحدة، يجعل منّي إنساناً سيّئاً؟ هل يشبه هذا الأمر العذرية؟ مرّة واحدة وتضيع، ويفوت الأوان؟ لا أدري. بالتأكيد، كام تعرف الإجابة، غير أنّني لم أحسم أمري يوماً لسؤالها. فأنا أفضّل عدم معرفة الجواب على المجازفة بفقدان ثقتها.

لا أدري ما إذا كانت فلورانس قد علمت بذلك لأنّني تركتها من دون أن أعترف لها بالأمر. ربّما اشتبهَت. في الواقع، لو كانت تلك المغامرة تعني لي شيئاً، لو أنّني أحببت الفتاة المعنيّة، لأخبرت فلورانس ربّما، ولشعرتُ على الأرجح أنّه عليّ الاعتراف بخيانتي. إلّا أنّها كانت لحظة عبثية لا معنى لها، فتاة غريبة في مقهى، وعلاقة عابرة هناك. كانت حماقة، الهدف منها نسيان كام أكثر منه الإساءة إلى فلورانس. وفي هذا النوع من المواقف، أعتقد أنّنا نعترف بالحقيقة لتبرئة أنفسنا من الذنب وليس احتراماً منّا للشخص الذي نخرج معه. غير أنّني لا أعتقد أنّ الصدق كان سيفيد فلورانس في شيء، لأنّني كنت أنوي تركها على أيّ حال. لذلك قرّرت أن أتعايش مع الشعور بالذنب بدلاً من التسبّب لها بمزيد من الألم. ومع أنّ ذلك لا يدعو إلى الفخر، إلّا أنّه أفضل ما استطعت فعله.

غالباً ما أواسي نفسي بالقول إنّني خنتُ حبيبتي السابقة مرّة واحدة فقط. ثمّ أفكّر في كلّ الرسائل التي تبادلتها مع كاميل، وكلّ المرّات التي أخبرتها فيها بأمور ما كنت لأبوح بها لفلورانس

أبداً، فأدرك أنّ هذا أسوأ بكثير من علاقة عابرة مع فتاة لم أعرف اسمها.

كام

كان فيكتور أطول علاقة لي حتّى الآن. وعندما أفكّر فيه اليوم، أجد صعوبة في شرح سبب بقائنا معاً لتلك الفترة الطويلة التي تجاوزت العام. حسناً، أعلم أنّني منافقة بعض الشيء بشأن كلّ هذا. فمن الصعب دائماً على المرء الاعتراف بأنّ العلاقة التي أنهاها كانت جيّدة، لأنّ ذلك يبدو فشلاً بحدّ ذاته، أليس كذلك؟ لكن برأيي لو كانت جيّدة، لما انتهت.

استغرق الأمر وقتاً طويلاً لأتقبّل أنّ علاقتي مع فيكتور كانت تشتمل على نواح جيّدة، وأنّني لم أُضع وقتي، وأنّه من المقبول الاعتراف باحتمال وجود بعض الحبّ حيث لم يعد ثمّة أيّ حبّ. استغرقت وقتاً طويلاً لأعترف لنفسي أنّني أحببت فيكتور حقّاً، بقدر الوقت الذي احتجت إليه لأدرك أنّني لم أعد أحبّه.

كنت في بداية عامي الأخير في الجامعة عندما بدأت بالخروج معه. وكنت قد واعدت شباباً آخرين منذ وصولي إلى كيبيك، قبل عامين، لكنّ أحداً لم يلاحقني حتّى الآن بقدره. لم يكن من طرازي بالضرورة، بل كان يحبّ ارتداء الماركات المعروفة، وكان لديه وشم على ساعده، كما كان يذهب إلى حلّاق ليقصّ شعره. في موعدنا الأوّل، اصطحبني إلى مقهى أنيق. كرهت تلك الجلسة بقدر ما أحببتها. فقد راح يتباهى طوال الأمسية وهو يتحدّث بصوت عالٍ. استمتعت كثيراً، لكنّني غادرت المكان وصوت يهمس بداخلي أنّ هذه العلاقة لن تنجح. فقد دفع للتوّ مقابل كأس من الشراب ما أدفعه في ليلة كاملة عندما كنت أخرج في ألما. ومن الواضح أنّنا لا ننتمي إلى العالم نفسه. هكذا، قلت في نفسي إنّني لن أتّصل به مجدّداً.

بينما كنّا ذاهبَين إلى سيّارته، مررنا بمحلّ بقالة في الحيّ. على الدرج، جلس رجل بلا مأوى. فتّشت في جيبي بحثاً عن قطعة من النقود عندما وضع فيكتور يده على ذراعي. فتجمّدت ولم أصدّق أنّ الرجل الذي أمضى الليلة وهو ينفق المال لنيل إعجاب فتاة سيمنعني من إعطاء بعض النقود لشخص محتاج. لكن في تلك اللحظة، تبدّل كلّ شيء. فقد بدأ فيكتور يتحدّث إلى الرجل. كنّا في نهاية الخريف، ولكنّ الطقس كان جميلاً، ولم نكن في عجلة من أمرنا. فتح حديثاً حقيقياً مع الرجل، وسأله عن المدينة التي أتى منها، والمكان الذي يعيش فيه، وعمّا يفعله ليكسب رزقه. فأخبرنا أنّ اسمه هنري، وأنّه كان يعمل فنّي كمبيوتر، لكنّ الحياة تأخذ منعطفات غريبة في بعض الأحيان، وقد خسر وظيفته. كانت لديه ابنة، لا يتحدّث معها منذ سنوات، تدرس الطبّ، وقال إنّه فخور بها جدّاً. كان حديثاً جميلاً بقدر ما كانت محزناً. قبل أن نرحل، دخل فيكتور محلّ البقالة وخرج بشطيرة أعطاها لهنري، ثمّ عانقَنا هنري قبل أن نرحل.

عندما وصلنا إلى سيّارة فيكتور، كنتُ أنا التي أخذت زمام المبادرة، إذ عانقته بقوّة. فوضع يديه على وجهي وأبعدني قليلاً.

سألته: «ماذا؟».

شعرت بشيء من القلق، لا سيّما وأنّني نادراً ما أبادر مع رجل.

«لا شيء، أردت فقط أن أنظر إليك لأتذكّر صورتك هذه».

ضحكت وسألته: «هل تحاول أن تبهرني برومانسيّتك؟».

«كلّا، ولكنّ اللحظات الجميلة نادرة جدّاً... وينبغي أن نستمتع بها ونحن نعيشها».

أدركت لاحقاً ما جذبني إليه: عنصر المفاجأة. فهو لم يكفّ عن إدهاشي في لقائنا الأوّل وخلال الأشهر الأولى من علاقتنا. لكن من الصعب الاستمرار في مفاجأة شخص ما عندما تبدأ الحياة اليومية. وفي مكان ما على طول الطريق، كفّ فيكتور عن المحاولة.

لم يكن فيكتور أوّل خيبة عاطفية بالنسبة إليّ (فقد تحطّم قلبي مرّات عدّة من قبل)، لكنّه كان إلى حدّ بعيد انفصالاً مدمّراً. وهذا ليس لأنّني تمنّيت لو كانت الأمور مختلفة – فقد كانت علاقتنا منتهية منذ مدّة – لكن بسبب حجم ما خسرته عندما انهار حبّنا. فبعد فيكتور، فهمت أنّ المرء لا

يواعد إطلاقاً شخصاً واحداً، بل يواعد أسرته، وأصدقاءه، وجميع الأشخاص الذين يتمحورون حول النواة التي يشكّلها الثنائي. بعد ذلك، عندما تتحطّم النواة، يتعيّن على الناس المحيطين بهما اختيار جانب معيّن. لذلك عندما تركته، خسرت أيضاً دائرة من المعارف التي أتت معه. وكان عيش تلك التجربة قاسياً. عندئذٍ، فهمت سبب بقاء بعض الأشخاص أحياناً في علاقات لا تسعدهم تماماً. فهم لا يحافظون على العلاقة من أجل النواة، بل من أجل كلّ ما يتمحور حولها.

من الصعب أيضاً الاعتراف أنّني تركت فيكتور على أمل حدوث شيء مع ماكس، إذ لم يكن هذا السبب الوحيد بالطبع. ففي البداية، أحببت حماسة فيكتور وعفويّته. كان مختلفاً، ابن مدينة مبادر وعصري. لكن مع الوقت، هدأ وخفّت حماسته... وبعد عام، خمدت النار بيننا ولم يتبقَّ سوى التواطؤ اللطيف الذي يبقى بعد تلاشي كلّ شيء آخر. أصبح فيكتور مريحاً، غير أنّ الراحة عدوّ الشغف، ولست من أولئك اللواتي يمكنهنّ العيش من دون شغف... بعد ذلك، وخلال الأشهر الأخيرة، بدأت نوبات الغيرة، التي اختلطت مع ومضات من العاطفة الخاطفة، مثل آخر تشنّجات الحياة التي تصيب شخصاً محتضراً. كان فيكتور يحاول التمسّك بي، وبنا. وكلّما تشبّث أكثر، آلمني وازدادت رغبتي في الابتعاد، الابتعاد عنه.

أتساءل أحياناً ما الذي كان سيحدث لو لم أخرج من منزل ماكس غاضبة تلك الليلة بعد انفصالي عن فيكتور. ما الذي كان سيحدث لو كنت أكثر صبراً بقليل، لو عرفت ماكس بشكل أفضل، في الواقع. فقد ضغطتُ عليه، واليوم، بتّ أعلم جيّداً أنّ هذه الطريقة لا تنفع إطلاقاً في الحصول على شيء منه. إذ يجب أن يشعر أنّ ما يعطيه يأتي بقرار منه هو.

هذا ما حدث على أيّ حال بعد أسابيع. حتّى إنّني لم أتوقّع ذلك. فقد قاومت رغبتي في الكتابة إليه، لأنّه بعد لقائنا الأخير، لم يعد مطروحاً أن أتّخذ الخطوة الأولى. شعرت بقوّة كافية للمقاومة، كما كرهت نفسي قليلاً بسبب ذلك. وذات صباح، نهضت ورأيت إشعاراً منه على فايسبوك. لم يعجبني تلقّي هذه الرسالة على فايسبوك، لأنّني لن أتمكّن من منع نفسي من قراءتها على الفور وسيعرف ذلك. عرفت أيضاً أنّه اختار فايسبوك لهذا السبب.

فتحت الرسالة بيدين مرتعشتين، وقلبي ينبض مثل حيوان في قفص. كانت رسالة طويلة، الأمر الذي لم يفاجئني. فقد كان ماكس، وما زال، الشابّ الوحيد الذي لم أشعر يوماً بالحاجة إلى

تقصير الرسائل التي أتبادلها معه. ومع أنّ هذا التفصيل قد يبدو تافهاً، إلّا أنّه يعني الكثير.

ماكس: مرحباً، كاميل. مرحباً، كام. كاميل، الأمر جادّ، وهكذا ستكون هذه الرسالة، لكن لا أدري ما إذا كنّا نحن كذلك. قد تجدينني مدّعياً باستخدام تعبير «نحن»، في حين أنّني رفضته بقسوة في المرّة الأخيرة التي تقابلنا فيها. (لطالما قلتِ لي إنّني عنيد بعض الشيء، ولن يكون الأمر مختلفاً هذه المرّة، على الأقلّ في هذا الشأن). فمنذ ذلك المساء وأنا أرغب في الكتابة إليك، لكنّني لا أجد الكلمات المناسبة. لا أدري ما إذا كان ذلك سيسعدك أم لا، أن أكتب إليك. فبعد أن تصرّفت بجبن في ذلك اليوم، أعرف أنّني أجازف بالكتابة إليك. في الواقع، لا أدري حقّاً ماذا أقول لك، أو بالأحرى، لا أعرف كيف أعبّر عمّا يجول في خاطري. ما أعرفه أنّني أفتقد إليك في حياتي. أفتقد أيضاً إلى فيكتور، ولكن أعتقد أنّه من المستحيل إصلاح علاقتي معه. أعلم أنّ ذلك لم يعد من شأنك بعد الآن، ولكن لا يزال من الصعب عليّ أن أفصل بينكما في رأسي. غير أنّني أدركتُ (أنا بطيء في الوصول إلى مقصدي، أعتذر على ذلك) أنّني حزين لخسارته، لكنّ خسارتك تحزنني أكثر. وهذا غريب، لأنّنا لا نعرف بعضنا البعض منذ مدّة طويلة، على الأقلّ ليس بقدر ما عرفتُ فيكتور، ولكن هذا هو الحال. بصراحة، بعد كلّ ما حدث، لا أعتقد أنّنا نستطيع أن نكون معاً أنا وأنت... على الأقلّ ليس الآن. فهذه خيانة كبيرة في هذا الوقت القصير. مع ذلك، أودّ رؤيتك والتحدّث معك... أودّ ببساطة أن تكوني في حياتي، فحياتي تصبح أفضل عندما تكونين فيها. قد يكون ذلك أنانياً من جانبي، وقد لا يكون كافياً بالنسبة إليك، أو ربّما خُيّلت إليّ آلاف الأفكار وفي الحقيقة، أنت لم ترغبي يوماً في أن تكوني أكثر من صديقة. إن كان الأمر كذلك، فليكن. (هل أبدو لك صادقاً؟ أنا أحاول). في النهاية، هذا ما أردت قوله. أنا مشتاق إليك وأودّ أن نذهب لتناول القهوة، أم تفضّلين الشراب؟ زجاجة من شراب الشعير تشبهنا أكثر، أليس كذلك؟ حسناً، سنشرب ما تريدين. حتّى إنّه ليس علينا أن نشرب، يمكننا أن نأكل أيضاً. هل تفهمينني؟ سنفعل ما يحلو لك يا كام. أتمنّى لو كنّا لا نزال في المدرسة الابتدائية. لو كنّا كذلك، لألقيتُ عليك كرة من الورق كتبتُ عليها: «أريد أن نبدأ من جديد كصديقين، هل ترغبين في ذلك؟». ولن تجدي على الورقة خيارات غير «نعم» لتضعي عليها علامة، لأنّني قد أكون مربَكاً قليلاً، لكنّني أعرف ما أريد. إذاً... هل تريدين ذلك؟

أعدت قراءة رسالته عدّة مرّات. حاولت فكّ رموز المشاعر التي غمرت قلبي، مثل سفينة في وسط عاصفة، تتقاذفها أمواج عاتية، مبهجة أحياناً ومخيفة في أحيان أخرى. ماكس مشتاق إليّ،

ماكس يريدني في حياته، ولكن ليس كحبيبة. ليس الآن على أيّ حال. هل أنا جاهزة لتجميد هذه المشاعر في الوقت الحالي؟ أو ربّما حتّى إلى الأبد؟

في النهاية، أصغيت إلى قلبي ببساطة. فقد كان صوته أعلى من كلّ الباقي. هكذا أجبته.

كام: نعم.

ثمّ أضفت:

كام: أنا أيضاً، أشعر أنّ حياتي تصبح أفضل عندما تكون فيها.

لأنّ هذا كلّ ما يهمّ.

ماكس

بعد الفشل الذريع لليلتنا المكسيكية، منحتُها يوماً لتهدأ... ولأهدأ أنا أيضاً، على ما أعتقد. في اليوم التالي، وبما أنّني لم أسمع شيئاً عنها بعد، بدأت أنزعج حقّاً. مع ذلك، حاولت أن أبقى قوياً، لأنّني شعرت هذه المرّة أنّني لم أكن أنا المخطئ.

أعلم جيّداً أنّه بعد انفصالها عن فيكتور، كنت أنا من كبح احتمال حدوث المزيد بيننا. بالطبع، من الصعب الآن العودة إلى الوراء وإخبارها أنّني كنت مخطئاً، من جهة لأنّني كنت مغروراً، وكذلك لأنّني أعلم أنّني جرحتها حقّاً بدفعها بعيداً. غير أنّ الأمر حسّاس أكثر بالنسبة إليّ، لأنّ كام تعرّضت منذ أن عرفتها لخيبات عديدة على أيدي شبّان أقلّ لطفاً منّي، لم يفكّروا في مراعاة مشاعرها، بل فضّلوا «المحاولة» لمجرّد معرفة «ما يمكن أن يحدث». وكانت تنتهي جميعها بمشهد واحد: كام تبكي في شقّتي، غاضبة من كلّ رجال الأرض، باستثنائي أنا. وفي كلّ مرّة، كنت أنظر إليها وأقول في نفسي إنّه من المستحيل أن أكون أسوأ من هذا الطابور الطويل من المتسكّعين، بينما أخشى أيضاً ألّا أكون جيّداً بقدرهم. فأنا أخشى دائماً ألّا أكون كافياً بشكل عامّ، ولا سيّما بالنسبة إلى كام. أعلم أنّني سأكون أفضل من هؤلاء الشبّان، على الرغم من أنّني لست متأكّداً من أنّني لن أؤذيها.

على الأقلّ، هذا ما ظننته حتّى وقت قريب. فمنذ مدّة، بدأتُ أفكّر أنّني ربّما أكون كافياً بالنسبة إليها في النهاية، أو أنّ رغبتي في أن أكون كذلك تفوق خوفي من الفشل. غير أنّني لم أعرف كيف أخبرها بكلّ ذلك من دون أن أخيفها، أو كيف أفعل بحيث تصدّقني. فكام تثق بي، ولكن عندما

يتعلّق الأمر بنا، أشعر أنّها تخلّت عن المسألة منذ مدّة طويلة. صحيح أنّني أنا الذي تسبّبت في موقفها هذا، غير أنّ ذلك لا يجعل الأمر أكثر سهولة.

يوم الاثنين التالي، قرّرت الاتّصال بها عند عودتي من العمل. اتّصلت مرّة، ومن ثمّ مرّة أخرى، غير أنّها لم تجب. أعلم أنّها تتجاهلني، لكنّها تعرف أيضاً أنّني أكثر عناداً منها. في المرّة الثانية عشرة، ردّت أخيراً.

«حقّاً؟».

«مساء النور».

«ظننت أنّك ستفهم من المرّات الإحدى عشرة الأولى أنّه ليس لديّ ما أقوله لك الآن».

«وكنت تعدّين أنت أيضاً؟».

حلّ الصمت على الطرف الآخر من الخطّ، فعرفتُ أنّها تبتسم.

«لقد حطّمتَ رقماً قياسياً».

«أعرف. في المرّة العاشرة، تردّدت في الحقيقة، وظننت أنّك لن تجيبي أبداً».

«حسناً، على الأقلّ، جعلتك تشكّ».

غرقنا في صمت شبه بارد. منعش أكثر من كونه بارداً، على الرغم من الأشياء التي لم تُقال بيننا، والتي حلّت محلّ كيميائنا المعتادة.

«ماذا تفعلين؟».

«أنا أكتب. حسناً، أحاول ذلك».

«رسالتك؟».

«لا، لا، بل قصّة قصيرة، ولكنّها ليست خارقة».

تضحكني كام كلّما أتحفتني بعبارات نموذجية من منطقتها. فهي تجيد التعبير عن نفسها – في النهاية، لا يمكن للمرء الوصول إلى الدكتوراه من دون أن يجيد الحديث – ولكن، كما أحبّ أن أذكّرها دائماً، بإمكاننا إخراج الفتاة من البحيرة، ولكن لا يمكن إخراج البحيرة من الفتاة.

«على الأقلّ أنت تكتبين، وهذا رائع. يبدو لي أنّه مضى وقت طويل منذ أن قرأت إحدى قصصك».

أحبّ عندما توافق على السماح لي بدخول هذا الجزء الحميم من رأسها. فعندما أقرأ نصوص كام، أراها في كلّ سطر. قد لا تكون بالضرورة سيرة ذاتية، ولكنّ كتابتها تشبهها. النبرة، والكلمات، والأفكار. فهي تضع القليل من روحها في كلّ جملة، ويبدو ذلك واضحاً. وأعتقد أنّ هذا ما يصنع كاتباً جيّداً.

«نعم، لأنّه مضى وقت طويل منذ أن كتبت شيئاً يستحقّ القراءة».

«لا يعجبك لأنّه ليس جيّداً أم لأنّه يحكي كثيراً عنّي؟».

أردت أن أمازحها، لكنّ جوابي سقط في الفراغ. بعد شيء من الصمت، أجابت:

«لا أعرف. في الحقيقة، أنا لا أعرف حقّاً ماذا أقول هنا. وأنا لا أتحدّث عن القصّة».

«أعلم، لكنّ هذا لم يمنعك من التحدّث إليّ من قبل».

«لكنّنا نادراً ما تحدّثنا عن ذلك من قبل».

«صحيح، وثمّة مرّة أولى لكلّ شيء، أليس كذلك؟».

«تقنياً، ستكون هذه المرّة... الثانية، أو ربّما الثالثة؟».

«نعم، أعرف، أحاول وحسب منحنا فرصة».

«وهل تتحدّث عن الوضع الحالي أم بشكل عامّ؟»

ابتسمتُ، فلطالما أحببتُ سرعة بديهتها.

«أعتقد أنّ هذا ينطبق على كلّ شيء».

«أتعلم، تلك هي المشكلة التي أعاني منها يا ماكس».

«وما هي؟».

«غموضك».

«عن أيّ غموض...».

قاطعتني على الفور متابعة:

«أنت تدلي بملاحظات عنّا، لكنّها ناقصة دائماً. تتحدّث في رسائل مشفّرة، وتريدني أن أفهم شيئاً لا تجيد قوله بصوت عالٍ-».

«كام...».

«كلّا، أنا لا أعرف ما الذي يحدث هذه الأيّام، ولكن عندما أراك، عندما نرى بعضنا البعض، يبدو الأمر وكأنّه... لا أدري».

«هل يمكنني أن أتكلّم الآن؟».

«نعم».

«وكأنّه كالماضي؟».

حلّ الصمت على الطرف الآخر من الخطّ. أغمضت عينيها، وعضّت إبهامها، وحكّت مؤخّر عنقها. لم أكن أراها بالطبع، لكنّني أعرفها أكثر ممّا أعرف نفسي.

ما سبب كلّ هذا التعقيد؟ ألا ينبغي أن يكون الوقوع في الحبّ سهلاً. المشكلة مع كام لا تكمن في الوقوع في الحبّ، إذ لم تكن هذه مشكلتنا يوماً. أنا أحبّها أساساً، وكان الوقوع في حبّها الجزء السهل. لكنّ الصعوبة الحقيقية تكمن في تجنّب الاصطدام بالأرض. هذا ما نخشاه. فأنا أخشى أن تتحطّم عظامي عندما تسوء الأمور، نتيجة لخطأ ارتكبته، مثلما يحدث دائماً. كما أخشى أن أحطّم جسدها الضعيف، لعدم تمكّني من تزويدها بجناحين.

لم تجبني، لأنّ عدم الردّ يعني كلّ شيء. فأضفت بصوت خافت:

«أنا بائس يا كام».

«أعرف، وأنا أيضاً».

«هل نمنح أنفسنا بعض الوقت؟».

حلّ الصمت مجدّداً. سمعت قلبي ينبض في صدغيّ، وكذلك قلبَها.

«أخشى أنّنا منحنا أنفسنا الكثير من الوقت أساساً».

كام

تساقط في الخارج، مطر أكتوبر الكريه. كان مزاجي جيّداً، لكنّني عجزت عن مواكبة وتيرة المقهى المكتظّ. تراكمت الأكواب على الطاولات المتّسخة، وشعرت أنّني لن أنتهي أبداً.

سألني جوناثان، صانع القهوة الذي أعمل معه اليوم: «هل أنت بخير».

«أفّ، أنا كئيبة».

«تبّاً لكآبة الفنّان».

«لأكون فنّانة، عليّ أن أكون مبدعة».

«لكن ألا تبدعين أطروحة ماجستير؟ كلّ شيء في أوانه يا جميلتي».

غمزني وتوجّه إلى الجزء الخلفي من المقهى لتنظيف الطاولات، بينما انشغلت برسم ورقة شجر برغوة الحليب على كوب لاتيه آخر (لم أكن في مزاج لرسم القلوب).

أنا أعرف جوناثان منذ أن بدأت العمل في المقهى. كان شابّاً طيّباً حقّاً، وأصبح صديقاً بمرور الوقت. نخرج لتناول شيء بعد مناوبتنا المسائية من حين إلى آخر، وأجده بجانبي دائماً لإنقاذي عندما أكون في حالة مزاجية كئيبة، كما هو حالي اليوم. فهو يعلم أنّني ميّالة إلى الكآبة، لكنّه يتقبّلني على أيّ حال.

المرّة الأولى التي رآني فيها بهذه الحال، كانت بعد انفصالي عن فيكتور. في ذلك الوقت، عشت فترة كئيبة إلى حدّ ما. كان لديّ ماكس في حياتي، لكن مع الأسف ليس بالطريقة التي أردتُها.

فكنت أحاول الاعتياد على هذه الصداقة الجديدة، والاكتفاء بما يمكنني الحصول عليه، حتّى لو كنت لا أزال أجد صعوبة في ذلك. فأنا لم أتعلّم أن أحبّه من دون أن أكون ملكه وأن يكون ملكي. وللمساعدة على سدّ هذه الفجوة، بحثت عن العاطفة، لانعدام الحبّ، في أحضان الغرباء.

لم يكن الأمر سيّئاً في البداية. كنت ألتقي بهم في المقاهي، ونتبادل بضع كلمات تافهة حول كؤوس يدفعون ثمنها، لأنّ الأمور كانت تجري على هذا النحو، ثمّ نقفز في سيّارة أجرة، ونكتشف بعضنا من الداخل والخارج خلال بضع ساعات. ولا ألبث أن أعود إلى المنزل في الصباح الباكر، وأنا أشعر بالامتلاء والفراغ على حدّ سواء. كان حلّاً سريعاً وفي متناول اليد، تماماً مثل وضع شريط لاصق على أنبوب فيه تسرّب، يسلبني أجزاء صغيرة. ولا شكّ في أنّني كنت أرتطم بالحائط في نهاية المطاف، وفي حالتي، كان الحائط يدعى يان.

التقيت به في مقهى، شأنه شأن الآخرين. لكن في تلك الليلة، اكتشفت معه إحساساً جديداً، دفئاً لم يخدش بشرتي، على عكس ما شعرت به قبله. ربّما كانت الطريقة التي نظر بها إلى عينيّ، أو الرقّة التي مسح بها على شعري. كان يان رقيقاً، في البداية على الأقلّ. ومع أنّه لم يطلب أن نقيم علاقة، لكنّه احتضنني بشدّة، واستغرقت في نوم عميق، قبل أن يتاح لي الوقت لطرح أيّ أسئلة على نفسي. لاحقاً، فهمت أنّ البساطة التي قرّر بها عنّي أن أبقى في منزله تلك الليلة لم تكن رومانسية بالضرورة. ذلك أنّ يان لم يكن ببساطة من النوع الذي يطلب.

التقينا على فترات متقطّعة لمدّة ثلاثة أشهر. كان حبّاً صيفياً عاصفاً وعابراً مثل الألعاب الناريّة التي يتمّ إطلاقها في المناسبات. وكان خطيراً أيضاً. إذ لم يسبق لي أن عرفت هذا القدر من الشغف أو الغضب. كان يكذب كما يتنفّس، على نحو جعلني أشكّ في نفسي. وكان يثير جنون صديقاتي، وكذلك ماكس، الذي أفقدَه عقله تماماً. وفي وقت من الأوقات، اعتقدت أنّ صداقتي مع ماكس لن تنجو بسبب تقلّبات حبّي ليان. أسمّي ذلك حبّاً لأنّني لا أجد له وصفاً أفضل. أمّا ماكس، فكان يرفض التحدّث عن الحبّ، لا سيّما وأنّه كره كلّ جوانب شخصية يان. وكنت أقول في نفسي: «فليكن، بما أنّه لم يرغب بي، فهذا شأنه». لكنّ ذلك لم يعزّني حقّاً، لأنّني كنت أعاني مع يان. يان، بعينيه السوداوين الكبيرتين، الذي يعرف جيّداً ما عليه قوله لكي يجبرني على البقاء. يعرف كيف يلعب على تعاطفي وحساسيّتي وإحساسي بعدم الأمان لكي أبقى بالقرب منه. يان الذي عاملني برقّة

بحيث لم أصدّق أنّه عرف أخريات. كان موهوباً للغاية في إقناعي أنّني الوحيدة في حياته، بحيث كان من المؤلم جدّاً القبول أنّني مجرّد فتاة بين عديد من الفتيات الأخريات.

مع يان، خسرت سذاجتي، وجزءاً كبيراً من ثقتي أيضاً، ولا سيّما بنفسي. فخرجت أخيراً من هذه القصّة في إحدى أمسيات شهر أغسطس الجميلة وأنا أقسم إنّني لن أسمح لرجل بأن يسيطر عليّ على هذا النحو ثانية.

كان بإمكان ماكس أن يقتله حقّاً على ما أظنّ. فقد رأيت ذلك في خضرة عينيه، وفي ومضة الكراهية الباردة التي لا أتمنّى رؤيتها ثانية، عندما طرقت باب منزله عند الساعة الثالثة صباحاً، بعد أن هربت عمليّاً من منزل يان. شعرت في ذلك الوقت بكلّ قوة حبّه الوقائي وأدركتُ أنّ هذا يكفيني. وكان بالفعل أكثر ممّا يمكن لكثير من الناس الحصول عليه في حياتهم.

وضع جوناثان يده على كتفي، وأخرجني من أفكاري.

«هل أنت بخير؟ تبدين شاردة».

«نعم، نعم، أنا بخير».

للمرّة الأولى طوال هذا اليوم، عندما قلت إنّني بخير، كنت أعني ذلك حقّاً.

ماكس

لم أرَ فيكتور مجدّداً إلّا مرّة واحدة، بعد مرور نحو عام على انفصاله عن كام. حاولتُ مراراً الاتّصال به في البداية، ولكنّه أوضح لي من خلال صمته المتواصل أنّه لا يريد التواصل معي.

كنت في نادٍ ليلي بعد عرض لفرقة موسيقية كانت شركتي تروّج لها. اتّكأت إلى البار، أصغي جزئيّاً إلى ما يقوله عازف الغيتار لأنّني، بصراحة، لا أحبّ موسيقاهم ولا أكترث لمصادر إلهامهم، ولأنّ فتاة حمراء الشعر وطويلة القامة كانت تلقي عليّ نظرات خاطفة بالقرب من آلة الفشار. كنت أنتظر أن أنهي شرابي، وأدع حديثي مع أحد أفراد الفرقة يقوم بتأثيره عليها، لأنّها بدت من نوع الفتيات اللواتي يتفاخرن أمام صديقاتهنّ بأنّهنّ تحدّثن مع المغنّي، حتّى لو كان المغنّي رجلاً عجوزاً. لا بل ستقول إنّها تحدّثت مع مدير الفرقة، لأنّ مغنّي الفرقة المعنيّ لديه تفضيل قويّ لغير الإناث. ومن يهتمّ ما إذا كنتُ مديرهم حقّاً، أو ما إذا كنت أهتمّ وحسب بالدعاية. فمن الطريقة التي كانت تمضغ بها قشّة شرابها وهي تحدّق إليّ، عرفت أنّ كلّاً منّا سيحصل على مراده من هذه القصة.

فجأة وضع أحدهم أمامي كأس شراب. كانت الكأس محمولة بيدٍ متّصلة بذراع تمتدّ إلى كتف يعلوها... رأس فيكتور. وكان يحمل كأساً مشابهة بيده الأخرى. ذُهلت للحظة قبل أن أسأله: «أهي كأس الهدنة؟».

لم أجرؤ على لمسها، على الرغم من أنّها كانت مخصّصة لي بوضوح. أخذ فيكتور جرعة وهو ينظر إلى عينيّ، كما يفعل الناس عندما يعرفون أنّهم في موقع السيطرة. كان مزيجاً من الهدوء والغطرسة. نعم، كان في موقع السيطرة، ولم أكن بالضبط في موقع يسمح لي بالتفاوض.

«لم أقرّر بعد».

«خذ كلّ وقتك، ما زال أمامنا بضع دقائق».

«صحيح».

في هذه القرية الكبيرة التي هي كيبيك، من العجيب أنّنا لم نرَ بعضنا البعض منذ ذلك الحين، أو ربّما كان ذلك نتيجة جهد خارق من جانبه. فعلى الرغم من أنّنا أنهينا دراستنا الجامعية، ولم يعد من المحتمل أن يلتقي بي في الجامعة، إلّا أنّنا نعاشر الأصدقاء أنفسهم ونتردّد على المقاهي والمطاعم نفسها. ولطالما فكّرت إلى أيّ مدى اضطرّ لتغيير حياته لكي لا يصادفنا أنا وكام مطلقاً. هي أيضاً لم تره مجدّداً. كما أنّه حظرنا نحن الاثنان على جميع وسائل التواصل الاجتماعي، ولزم أصدقاؤنا المشتركون الصمت حياله. غير أنّني عرفت بسفره، لا أدري تماماً إلى أين، إلى مكان ما في أمريكا اللاتينية، على ما أعتقد، ولم أحصل على أيّ تفاصيل أخرى. كنت محظوظاً أكثر من كام، إذ أنّني استُبعدت عن كلّ ما يتعلّق بفيكتور، لكنّ وجودي كان مقبولاً. أمّا هي، فقد تمّ استبعادها تماماً من المجموعة.

هكذا مرّ عام، عام أطرح فيه التساؤلات التي بقيت بلا إجابة، ولكن ها هو أمامي. كان شعره أطول بقليل، وكتفاه أعرض وهو يقدّم لي كأساً من الشراب، كما لو أنّنا رأينا بعضنا البعض في اليوم السابق. أدركت أنّ ظهري كان يتصبّب عرقاً. أمّا ذات الشعر الأحمر، فقد انصبّ اهتمامها على عازف الغيتار. أدركتُ أيضاً أنّني لا أكترث البتّة. عرض عليّ فيكتور قائلاً: «هل نجلس في الطابق العلويّ؟».

حملتُ شرابي وتبعته بعيداً عن البار، وبعيداً عن الفرقة. شعرتُ أنّ حديثاً كان يختمر، ولم أكن متأكّداً من رغبتي في الخوض فيه، على الرغم من أنّني انتظرته طويلاً. أصابني الذعر، واختلطت في رأسي كلّ الأمور التي حضّرتُ نفسي لقولها منذ عام في رأسي. في الوقت نفسه، سررت لأنّه أخذني على حين غرّة، فلو عرفت أنّني سأصادفه هذه الليلة، لما أتيت ربّما.

جلسنا مقابل بعضنا البعض إلى طاولة عالية. تناولت جرعة كبيرة من شرابي، بينما نظر إليّ فيكتور من دون أن يرفّ له جفن. كان من الغريب أن أجلس أمامه وأنا أشعر بهذا القدر من عدم الارتياح. وقد أحزنني أن أفقد راحة فترات الصمت المتواطئة التي كنّا نستمتع بها في الماضي.

قلت لأكسر الجليد، ولأنّني كنت صادقاً: «من الجيّد أن أراك مجدّداً».

كان أقدم أصدقائي، لا بل أوّل صديق حقيقي لي في المرحلة الثانوية، والشابّ الذي أمضيت معه أجمل فترات حياتي. وسواء كنت مرتاحاً أم لا، فإنّ جزءاً منّي لم يكفّ عن افتقاده منذ آخر مرّة رأينا فيها بعضنا البعض.

«أنت أيضاً، وهذا يفاجئني».

«أن تكون سعيداً؟».

«لن أذهب إلى حدّ القول إنّني سعيد».

التوى فمه بشبه ابتسامة، ابتسامة فيكتور، وبدأ التوتّر يتلاشى قليلاً.

«يدهشني أن أرغب في رؤيتك أنا أيضاً».

«من الصعب تغيير العادات القديمة».

«هذا ما يقال».

أخذنا رشفة من شرابنا في الوقت نفسه. وتمنّيت لو أنّه أعطاني كأساً كبيرة من شراب الشعير، لأنّ ذلك كان سيمنحني كمّية أكبر من الجرعات لفكّ تشابك الكلمات التي احتشدت في حلقي. ولكن لطالما كان هذا النوع شرابنا المفضّل، وقد تأثّرت لأنّه فكّر في ذلك.

قلت أخيراً: «لا شكّ أنّه لديك أسئلة».

ضحك، ضحكة بدت مزيّفة.

«سؤال أو اثنان».

«حسناً، تفضّل. هذا ما اجتمعنا من أجله على ما أعتقد».

«تماماً».

راح يرسم دوائر على الطاولة بكأسه، تركت خطّاً رطباً على الخشب الداكن. فتركّزت نظراتي عليها بدلاً منه، لتجنب التقاء نظراتنا عندما يطرح عليّ السؤال الذي أخشاه.

«هل خانتني كام معك؟».

تمنّيت لو طرح السؤال بشكل مختلف. فقد توقّعت أن يسألني ما إذا كنت قد أقمت علاقة مع كام. وكان من الأسهل بكثير الإجابة عن سؤال كهذا: إمّا أسود أو أبيض. فمن غير الممكن إقامة علاقة مع شخص ما قليلاً. أمّا تعريف الإخلاص، فهو شخصي للغاية وأكثر قابلية للتبدّل.

«لم أقم معها علاقة يا فيكتور».

«هذا ليس ما سألتُه».

حاولت أن أتجنّب سؤاله، على الرغم من علمي أنّ ذلك لن ينجح. ففيكتور هو الذي علّمني كيف أتفادى الأسئلة، عندما كنّا ثنائياً لا يعيقه شيء. هي فترة ليست ببعيدة، ولكنّها بدت مع ذلك وكأنّها من زمن آخر.

«عليك أن تكون أكثر وضوحاً، إذاً».

«هل خانتني معك؟ سؤال بسيط، أليس كذلك؟».

«أنت تعلم أنّه ليس كذلك».

«أنت تعلم أنّه، ما دمتَ تقول ذلك، فأنت تعتقد أنّ الإجابة هي جزئيّاً نعم».

ابتلعتُ شرابي في جرعة واحدة، وأشرت إلى النادلة لإحضار كأسين آخرين.

«ثمّة دائماً شيء ما بيني وبين كام».

«أعرف».

«حسناً».

«أودّ أن أعرف ما هو هذا الشيء».

«بصراحة، أنا أيضاً. لا أستطيع شرح ذلك، لكن ثمّة رابط بيننا. لم أشعر يوماً بالارتياح مع شخص آخر، إن كنت تعرف ما أقصده...».

أجاب بجفاف: «نعم، نعم، أفهم».

لزمت الصمت، إذ شعرت أنّني تماديت. في النهاية، ربّما لم أكن بحاجة إلى كأس آخر، ولكنّني تشبّثت به كما لو كان طوق نجاة عندما وضعته النادلة أمامي.

أضاف فيكتور بعد صمت طويل: «أتعلم، أعتقد أنّني لطالما عرفتُ ذلك في أعماقي».

لا بدّ أنّه بدأ يشعر بتأثير الشراب هو الآخر، أو أنّه سئم من الكذب على نفسه. ربّما كان مزيجاً من الاثنين.

«كنت أرى الطريقة التي تنظر بها إليك، كما لو كنتَ الشمس. فما من أحد يتمتّع بما لديك من كاريزما ومرح وكمال. مع ذلك، فقد حاولت...».

«فيكتور...».

«كلّا، اسمعني. منذ عام وأنا أحبس كلّ هذا بداخلي».

ضغطتُ على شفتيّ بصمت. فليقل ما يريد، سواء خنته مع حبيبته السابقة أم لا، فأنا مدين له بذلك. لقد أحببت حبيبته، وهذا لا يقلّ فظاعة عن إقامة علاقة معها. لا بل ربّما كان أسوأ. فالرغبة في أحدهم أمر خارج عن سيطرتنا. إنّها كيمياء أجساد، وأحاسيس بدائية. أمّا الوقوع في حبّ أحدهم، فهذا يعني أنّنا أمضينا وقتاً كافياً مع الشخص للتعرّف إليه حقّاً، ومعرفة أنّنا نريده لأمور تتجاوز شكله الخارجي، نريد جوهره. وتستغرق معرفة جوهر الشخص وقتاً.

«لقد حاولتُ طويلاً تجاهل هذا الشيء بينكما. حاولت أن أكون أفضل منك، وأن أُظهر لها أنّني أستطيع إعطاءها ما هو أفضل».

«مثل ماذا؟».

ما كان ينبغي بي أن أسأل، غير أنّه جرح كبريائي.

«عائلة، أطفال، حياة مستقرّة ومتينة».

«وتعتقد أنّني لا أستطيع أن أقدّم لها ذلك؟».

«حسناً، أنا لا أقول إنّك لا تستطيع، ولكنّك لا تريد حقّاً. فكلّ هذا ليس أسلوبك».

«ألم تدرك أنّ هذا قد لا يكون أسلوبها هي أيضاً؟».

كنت ألعب أوراقي بشكل خاطئ، فقد اضطربت قليلاً من كلامه الذي مسّ غروري. أردت أن أريه أنّني أعرف كام أفضل منه، مع أنّه كان يجدر بي أن أفعل العكس. كان عليّ أن أتقبّل الشتائم واللوم من دون اعتراض، وأن أدعه يفرغ ما في قلبه. فهو يستحقّ ذلك، نظراً للظروف. اعتقدت في تلك اللحظة أنّ فيكتور سيغضب وسيعترض. إلّا أنّه شرد بنظره للحظة، ثمّ ابتسم ابتسامة حزينة فطرت قلبي إلى نصفين، إلى قطعتين متساويتين في قفصي الصدري.

«بالضبط، حين أدركت أنّني كنت أدفعها نحوك وحسب، فهمتُ ذلك. الأمر ينجح بينكما أنتما الاثنان على نحو أفضل، وذلك تحديداً لأنّ الأمور التي لا يمكنك منحها إيّاها لم تكن تريدها. أنت تذكر كيف كنتُ قبل أن أقابلها، أليس كذلك؟».

«نعم».

«كنت مثلك، متقلّباً، لا أكترث لشيء. لكنّها غيّرتني، وجعلتني أرغب في ضرب جذور في الأرض والاستقرار. ونسيت أن أتذكّر أنّها عصفورة».

كان كلامه جميلاً. لطالما كان فيكتور شاعرياً، على نحو غير متوقّع من فتى ثريّ يثير إعجاب الجميع. ولطالما حسدته على هذه الموهبة، من دون أن أدرك أنّه كان هو الآخر يحسدني على جوانب معيّنة من شخصيّتي.

أردت إخباره أنّه كان مخطئاً، وأنّ الأمر لم يحدث بهذه الطريقة، ولكنّ الكلمات ظلّت عالقة في حلقي. فنحن نعرف بعضنا جيّداً لكي نكذب على بعضنا البعض. أفرغ فيكتور كأسه، ثمّ نهض.

«أتمنّى أن تجعلها سعيدة، فهي تستحقّ ذلك».

نظرتُ إليه باستغراب.

«نحن لسنا معاً، أنا وكام».

«ماذا؟».

«نحن لا نخرج معاً».

حدّق إليّ طويلاً قبل أن يهزّ رأسه آسفاً.

«يا له من غباء».

«المعذرة؟».

«يا لها من خسارة».

«عمّ تتحدّث؟».

وضع يده على كتفي، وضغط بقوّة.

«تبّاً يا ماكس. كنت أودّ لو أنّ معاناتي أوصلتكما إلى مكان ما على الأقلّ».

رفع يده، ثمّ توجّه إلى الدرج. قبل أن يهبط، التفت إليّ قائلاً: «قد يكون والدك على حقّ في النهاية. فبالنسبة إلى شابّ بهذا الذكاء، أنت بطيء الفهم أحياناً».

كان هذا آخر ما قاله لي، وبه قطع الرابط المتين الأخير الذي جمع بيننا في يوم من الأيّام.

كام

في إحدى الأمسيات، بينما كنت لا أزال أواعد فيكتور، راسلت ماكس مستفيدة من تأخّر فيكتور في العمل. كنت قد بدأت أشعر بالضيق تجاهه. أعلم أنّنا أنا وماكس لا نتحدّث في أمور مسيئة، ولكنّ فيكتور كان يزداد توتّراً وغضباً بشأن الصداقة النامية بيننا. لذا، أردتُ أن أتجنّب شجاراً آخر، كما أردت أن أتجنّب الاضطرار إلى طرح أسئلة حقيقية على نفسي، على ما أعتقد.

كان ماكس يحدّثني عن فلورانس، التي تودّ إنجاب الأطفال. لم تتحدّث معه عن ذلك، لكنّه ادّعى أنّه سيأتي يوم وتطرح فيه المسألة.

كام: ألا تريد أطفالاً؟

ماكس: هل تقدّمين لي عرضاً؟

كام: نعم، تماماً. أنا أريد أطفالك يا ماكس، وأنا سعيدة لأنّنا نستطيع قول ذلك لبعضنا البعض بصراحة.

ماكس: هذا جيّد، وأنا سعيد أيضاً. فمن المهمّ أن نكون صادقَين.

كام: إذاً أنت تريد أطفالاً، ولكن ليس أطفالها؟

رأيت النقاط الثلاث الرمادية الصغيرة تظهر وتختفي وهو يصيغ جوابه.

كام: لقد طرحت عليك سؤالاً جيّداً، أليس كذلك؟

ماكس: أنت تطرحين دائماً أسئلة جيّدة، وهذا جزء من المشكلة.

كام: المشكلة؟

راح قلبي ينبض بسرعة، ولم أعرف تماماً السبب. فقد شعرت أنّني أتوتّر إزاء الأمور التي لا تقال والتي بدأت تشغل كلّ المساحة بيننا.

ماكس: انسي الأمر.

كام: هذا لا يعجبني.

ماكس: أنت تعلمين أنّني لست مثيراً للإعجاب.

كام: هذا كلام خاطئ، فأنت مثير جدّاً للإعجاب. (ليس لديك الحقّ في إلقاء كلامي في وجهي لمجرّد أنّني قلت ذلك).

ماكس: أنت تسيئين فهمي إن ظننتِ أنّني لن أستخدمه ضدّك.

كام: حتّى لو كنت أسألك بلطف؟

ماكس: هل ترمشين لي بعينيك من بعيد؟

كام: أرمش بعينيّ ببطء شديد وأنحني قليلاً أيضاً...

ماكس: تنحنين؟

كام: أمنحك نظرة أفضل إلى فتحة قميصي. فأنا أعرفك جيّداً، وأعرف أنّ عينيّ الجميلتين لن تكونا كافيتين.

ماكس: هاهاهاها، تبّاً كم أحبّك، حقّاً!

بقيت متردّدة، إذ كانت المرّة الأولى التي يقول لي فيها ذلك. أعلم أنّها كانت مزحة عفويّة، وأنّني حبيبة صديقه، وبالتالي لديه عملياً الحقّ في قول ذلك لي، لأنّه ينبغي أن يعتبرني أختاً له، ولا بأس في أن يحبّ المرء أخته. غير أنّني أعلم أيضاً أنّه لا يعتبرني أخته على الإطلاق.

كنت على وشك الردّ بتعليق ساخر، في محاولة لتشتيت الانتباه، عندما كتب رسالة أخرى.

ماكس: لقد وصلَت فلورانس، وعليّ الذهاب. علينا تحضير السبرينغ رولز معاً الليلة. ...

ماكس: ولكن كام؟

كام: نعم؟

ماكس: لا أعتقد أنّني أريد أطفالاً، لا من فلورانس ولا من أيّ امرأة أخرى، حتّى منك أنت... فأنا أعرف أنّني لن أكون أباً صالحاً.

في ذلك الوقت، كنت قد بدأت للتوّ بفهم مدى امتداد المشاكل بين ماكس ووالده. وكنت سأجيبه أنّه مخطئ، وأنّه يُسقط علاقته بأبيه على نفسه أو شيء من هذا القبيل، وهو ردّ كان من شأنه أن يجعله يصرّ على أسنانه ويبتسم في الوقت نفسه، ولكنّه سبقني مجدّداً.

ماكس: لا شكّ في أنّ أطفالنا سيكونون في غاية الروعة.

لم أجب بشيء، لأنّني لم أعرف ماذا أقول، نظراً لأنّني كنت أوافقه. أنا أيضاً لم أكن أرغب في إنجاب أطفال، لا من فيكتور ولا من أيّ رجل آخر. مع ذلك، تشكّلت في أعماقي صورة عابرة لطفل أحمر الشعر قليلاً، يملك عينيّ، طفل صغير جدّاً بين ذراعيّ ماكس الخرقاوين... ولم أكره الفكرة على الإطلاق.

كانت تلك أوّل محادثة بيني وبين ماكس أحذفها من هاتفي.

ماكس

كان صباحاً هادئاً في العمل وكنت أقتل الوقت على فايسبوك عندما تلقّيت دعوة لحضور حفل شواء لدى فاليري، صديقة كام المقرّبة. لديّ اعتراف هنا: أنا لا أحبّ فاليري حقّاً، وهي تبادلني الشعور نفسه. لا أدري تماماً ما مصدر هذا العداء الذي نخفيه بالكاد. أعتقد أنّها تشكّ في أنّني أضيع وقت كام من خلال احتلال كلّ هذه المساحة في حياتها، الأمر الذي يُحتمل أن يحرمها من الأشياء التي تجعلها، هي، سعيدة. لا بدّ أنّها تفكّر في أنّه لولاي، لكان بإمكانهما هي وكام أن تتشاركا حياة النساء المتزوّجات. فتعيشان في الضواحي مع زوجيهما، وتنجبان كثيراً من الأطفال الشقر الذين يركضون في الأرجاء بقمصان بولو البيضاء الملطّخة ببقع الآيس كريم. هذا ما تتمنّاه فاليري لكام، ولكن أعتقد أيضاً أنّها تعرف تماماً أنّ هذا لن يحدث. فهذا ليس ما تتمنّاه صديقتُها، في الواقع. باختصار، هي لا تحبّني لأنّها تعتقد أنّني أحرم كام من كلّ مباهج الحياة اللائقة، الحياة الزوجية على الأقلّ، وأنا لا أحبّها لمجرّد أنّنا لا نملك قواسم مشتركة على الإطلاق، وليست لدينا رغبة في إيجاد نقطة تجمع بيننا، باستثناء كام.

على الرغم من ذلك، تعلّمتُ على مرّ السنين أن أتواجد بصحبة فاليري من دون خوض مشاحنات معها، لأنّنا نضجنا وقرّرنا، مثل والدَين في حضانة مشتركة، أنّه من الأفضل للطفل (والطفل هنا كام) أن نتظاهر بأنّنا نحبّ بعضنا البعض. لذلك، تدعوني فاليري، عدّة مرّات في السنة، إلى حفلات الشواء التي تقيمها، وأعتذر في كلّ مرّة بحجّة أنّني خطّطت لأمر آخر. هذا هو اتّفاقنا الضمنيّ. ولكن هذه المرّة، عندما دعتني فاليري من باب التهذيب إلى «آخر حفلة شواء في العام»، والمقرّرة يوم السبت التالي، كان قد مرّ أسبوع تقريباً منذ أن رأيت كام. ولا يمكنني حتّى أن

أتخيّل تعابير وجهها، في مطبخها العصري على طراز ربّات منازل الخمسينيات، عندما تلقّت إجابتي. لا شكّ في أنّها سقطت عن كرسيّها لتجرّؤي على كسر اتّفاقنا غير المكتوب.

بالكاد مرّت دقيقتان منذ أن قبلت الدعوة حتّى ظهرت نافذة دردشة مع كام في أسفل يمين صفحتي على فايسبوك.

كام: هل أنت مصاب بالحمّى أم ماذا؟

ماكس: أنا في حالة سخونة دائماً، لماذا؟

ردّاً على ذلك، أرسلت إليّ لقطة شاشة لقائمة الأشخاص الذين سيحضرون حفل الشواء. كانت شاشة الهاتف التي أرتني إيّاها مختلفة عن شاشتها. فكام تملك شبكة كودو، في حين أنّ الهاتف المعنيّ يستخدم شبكة رودجرز. لا شكّ في أنّ فاليري هي التي أرسلت لقطة الشاشة.

ماكس: إنّها مصدومة، أليس كذلك؟

لم تردّ كام على ملاحظتي.

كام: هل لي أن أعرف لماذا تمنحنا شرف حضورك؟

ماكس: حسناً، منذ أن حدّثتني عن الأضلاع الشهيّة التي تُعدّها، وأنا أرغب في أن أحكم بنفسي.

كام: كلّ هذا لتتذوّق الأضلاع؟

ماكس: الأمر يستحقّ.

كام: أنت لا تحبّ حقّاً اللحوم الحمراء. هل ثمّة سبب آخر؟ هل أنت واثق؟

استغرقتُ لحظة للتفكير في إجابتي.

ماكس: اسمعي، أنا أعتقد أحياناً أنّني أستمتع بقدر زائد من الحرّية في حياتي. لذلك، قلت في نفسي لماذا لا أذهب لرؤية فاليري تسيء معاملة صديقها لبضع ساعات، لكي أضع الأمور في نصابها.

كام: أنت لست عادلاً. فهو لا يتعرّض لسوء المعاملة، بل هو خنوع. وهذا يختلف.

ماكس: الاختلاف بسيط جدّاً، إذا كنت تريدين رأيي.

كام: إذاً ما من سبب آخر حقّاً؟

ماكس: آه بلى، الآن تذكّرت. أنت ما عدت تحبّينني.

كام: قصّتك ميلودرامية.

ماكس: في الماضي، كانت نزعة ملكة الدراما لديّ تعجبك.

كام: هاهاها تبّاً، كفى يا ماكس، بدأت أغضب.

الأمر ليس أنّني لم أعد أحبّك وأنت تعرف ذلك جيّداً.

ماكس: أهو العكس إذاً؟

كام: إنّك تضغط عليّ.

ماكس: هذا أيضاً كان يعجبك في الماضي.

لم تجبني على الفور، وطال صمتها بما فيه الكفاية لأتساءل عمّا إذا كنت قد تماديتُ كثيراً. هذا ما يحدث عندما يشعر المرء بالراحة مع شخص ما، إذ نعتقد أنّ الحدود بيننا امّحت. وهو أمر مزعج عندما يقرّر الآخر، بعد أخْذ كلّ شيء في الاعتبار، أنّ الحدود ما زالت موجودة.

كام: إذاً، سنرى بعضنا يوم السبت؟

ماكس: هل أمرّ لاصطحابك؟

كام: كلّا، الطقس جميل، أراك هناك. فأنا سأذهب باكراً لمساعدة فاليري.

ماكس: كم أنت محظوظة، أنا أيضاً أودّ مساعدة فاليري.

كام: كاذب.

ابتسمت، وقبل أن يتاح لي الوقت لإضافة شيء، اتّصل مديري ليطلب منّي الحضور إلى مكتبه، فسارعتُ بإغلاق فايسبوك. من الواضح أنّ يومي سيكون طويلاً.

كام

وصلت إلى منزل فاليري في وقت مبكر من بعد الظهيرة. لفحت رياح أكتوبر وجهي عندما ترجّلت من سيّارتي، لكنّني علمت أنّني سأكون بخير عندما أصبح في فناء منزلها الخلفي، بالقرب من المدفأة الكبيرة المقامة في الهواء الطلق. ثمّة مزايا للحياة المنظّمة. أتت فاليري لتفتح لي الباب، والابتسامة تعلو وجهها، مرتدية ملابس أنيقة لكنّها مريحة. منزل صديقتي مثلها تماماً: جميل ومنظّم وهادئ. أعلم أنّ فاليري تجسّد النجاح بالنسبة إلى معظم الناس. أعلم أيضاً أنّ حياتها ترضيها، حتّى لو كان من الصعب عليّ بعض الشيء أن أفهم ذلك. كلّ ما في الأمر أنّ تعريفها وتعريفي للنجاح متعارضان تماماً. فأنا لم أر نفسي يوماً كفتاة ذات أهداف تقليدية في الحياة. أعني أنّني في الخامسة والعشرين من عمري، وأنوي الانخراط في خمس سنوات أخرى من الدراسة. وحتّى مع فيكتور، الشخص الذي أقمت معه أطول علاقة حتّى الآن، لم أفكّر حقّاً في إنجاب الأطفال. ففكرة ضرب جذور في مكان ما والبقاء فيه حتّى النهاية كانت تبقيني مستيقظة طوال الليل بينما يخطّط هو لمستقبلنا: منزل، وشاليه، وأطفال، وأسبوعين نقضيهما في أولد أوركارد صيفاً. أنا من أوجدتُ هذه الرغبة لديه، على حدّ قوله.

من ناحيتي، هل السبب في عدم رغبتي في حمل كائن صغير في أحشائي أنّه ليس الشخص المناسب، أم أنّني لا أملك هذه الرغبة ببساطة؟ في الواقع، أنا لا أحبّ أن أفكّر كثيراً في ردّ فعلي تجاه طفل تكوّن في جسدي، إنسان صغير يحمل قليلاً منّي وقليلاً من شخص أحبّه، يملك شعري وعيناه، ومزاجي وضحكته الماكرة، ويمتزج فيه ما هو جميل لديّ ولديه. ربّما كنت ميّالة إلى الخوف في أعماقي، ولكنّني لست متأكّدة من أنّ رغبتي في ولادة معجزة صغيرة كهذه ستحلّ محلّ

خوفي من فقدان هذه السعادة. ففي بعض الأحيان، أفكّر أنّني لم أحظَ بأمّ لفترة كافية لكي أجيد رعاية أطفال عندما يحين دوري في أن أصبح أمّاً.

في المطبخ، كانت فاليري تحضّر الكباب وهي تثرثر. صبّت لنا كأسين من الشراب وانصرفتُ لتقطيع الخضار بعناية. هدهدني صوتها حتّى لو لم أكن أصغي إليها تماماً. فخَفّتها تريحني. الحياة بسيطة بالنسبة إلى فاليري، لأنّها متأكّدة جدّاً ممّا تريده وممّا لا تريده. وهذا أحد الأسباب التي تجعلني أحبّ رفقتها. فمعها، ما من شكوك أو تساؤلات. برفقتها، أتمكّن من تنحية مخاوفي جانباً.

«لقد توقّفتِ عن الإصغاء إليّ، أليس كذلك؟».

ابتسمَت، ولكنّها لم تشعر بالاستياء. وضعَت الكباب في الثلّاجة، وأخذَت رشفة من الشراب.

«كنت تخبرينني عن لون ربطة عنق الإشبين».

«كام! مرّت عشر دقائق على ذلك...».

«عذراً...».

انفجرَت ضاحكة وصبّت لنفسها مزيداً من الشراب. عرضت عليّ صبّ المزيد، لكنّني رفضت. إذ أريد أن يكون فكري جليّاً عندما يصل ماكس. كنت أشعر بالتوتّر لفكرة رؤيته، وهذا ما لم يحدث منذ مدّة طويلة. ولذلك شعرتُ بالغرابة.

«إذاً، ألن نتحدّث عن سبب قدوم ماكس إلى حفلة الشواء؟».

ألقت عليّ فاليري نظرتها الفضوليّة الشهيرة.

«أتمنّى ألّا نفعل...».

«هذا يعني أنّك لا تعرفينني جيّداً».

«لا، لا، أنا أعلم أنّنا سنتحدّث عن ذلك في النهاية، لكنّني قلت وحسب إنّني أتمنّى لو لا نفعل».

وضعَت كأسها على المنضدة، واتّكأت على جزيرة المطبخ أمامي.

«أتعرفين ما أفكّر فيه يا كام».

«أنت لا تعرفين حتّى ما حدث».

«لديّ شكوكي».

«وما هي؟».

«أعرف أنّ ماكس لم يكن ليقبل الدعوة ما لم يكن لديه شيء يودّ أن تسامحيه عليه. فهو بالتأكيد لن يأتي لمجرّد تذوّق الأضلاع التي أعدّها».

أضحكني كلامها قليلاً.

«هذا ما قاله في الواقع. كما ترين، لديكما قواسم مشتركة أكثر ممّا تظنّان!».

«أنت».

«ماذا؟».

«أنت القاسم المشترك بيننا، هذا كلّ شيء تقريباً».

كنت أعلم أنّها على حقّ. فماكس حرّ، وحادّ، ومتقلّب، إنّه أشبه بعاصفة في المحيط. أمّا فاليري، فهي هادئة وتتمتّع بالتصميم ويمكن توقّعها. فاليري أشبه بمياه بحيرة، وهذا ما يبعث على التساؤل عن سبب قربي منهما. ربّما لأنّ كلاً منهما يجلب لي شيئاً مختلفاً.

أنهت فاليري كأسها، ثمّ سألتني:

«أخبريني أمراً...».

«ماذا؟».

«هل تقولين في نفسك إنّني كنت على حقّ، بشأنكما أنتما الاثنين؟».

أخذتُ الوقت الكافي للتفكير، حتّى لو كنت، في أعماقي، أعرف الإجابة أساساً. لا أدري ما الذي حدث مؤخّراً لكي تفقد الصداقة بيني وبين ماكس استقرارها. فلطالما اعتقدت أنّه، لكي يحدث ذلك يوماً ما، فسيكون بسبب عنصر حافز أو تغيير كبير، كأن يلتقي ماكس بفتاة وتصبح العلاقة بينهما جدّية ويبتعد عنّي. كنت أظنّ أنّ ذلك سيستغرق تراكماً من العوامل المؤلمة لكي أقرّ أنّ المكان الذي أحتلّه في حياته لم يكن كبيراً بما يكفي بالنسبة إليّ، لكي أجرؤ على التحدّث إليه حول هذا الموضوع. المشكلة أنّه، في الظاهر، لم يتغيّر شيء، ومع ذلك، أصبح جسدي وقلبي يرغبان في المزيد. ولا أريد أن أشعر بالذنب لرغبتي في ذلك، لكنّني لا أعرف كيف أُخلّ بهذا التوازن الذي حقّقناه على مرّ السنين. فقد بنينا عديداً من الحواجز بيننا لحماية ما اعتقدنا أنّه ضروري بحيث لم أعد أعرف من أين أبدأ. وأنا أخشى أن أركل الحجر الخطأ وينهار كلّ شيء.

«لا أدري ما إذا كنت أعتقد أنّك على حقّ، لكنّني بدأت أعتقد ببساطة أنّنا ربّما كنّا نحن المخطئَين».

أمسكت فاليري يدي ونظرت إليّ بحنان.

«قوليها كما تشائين يا جميلتي، لكنّ الأمر سيان، إذا أردتِ رأيي».

ماكس

بمجرّد دخولي منزل فاليري، تذكّرتُ على الفور منزل والديّ. صحيح أنّ هذا المنزل أقلّ إسرافاً بكثير (أمنحها بضع سنوات بعد قبل أن تبلغ ذروة الفخامة والترف)، لكنّ الأجواء هي نفسها. كلّ شيء في مكانه الصحيح، كلّ شيء نظيف ومتوازٍ. شعرت برغبة في تحريك بعض الكتب في المكتبة، أو دفع إطار لوحة ليصبح منحرفاً بعض الشيء. لا يتعلّق الأمر بعدم جمال المكان، كلّا، بل هو مثالي للغاية، وأنا لا أثق بالأشياء التي تبدو مثالية، لأنّها غالباً ما تخفي أسراراً.

والداي مثال جيّد على ذلك. فعلى الورق، هما خاليان من العيوب. والدي طبيب، ما زال يشارك في سباقات الماراثون، وغالباً ما يقدّم التبرّعات. أمّا أمّي فهي أصغر منه سنّاً، وتعمل لدى منظّمة غير ربحية بدوام جزئي، أي ما فيه الكفاية فقط وليس على نحو يرهقها. لا تزال جميلة رغم سنّها، كما أنّها أنيقة ومتّزنة. كلاهما منخرطان في مجتمعهما، يرعيان طفلاً في كينيا أو البيرو، أو لا أذكر في أيّ بلد يعاني من الفقر، ويسافران إلى بلد غريب مرّة في العام. كما أنّهما متزوّجان منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً، في علاقة من دون شوائب ومن دون أخطاء. على الأقلّ، في الظاهر.

كنت في الخامسة عشرة من عمري، عندما فاجأت والدي مع سكرتيرته. كانت صدفة سخيفة، وما كان ينبغي أن تقع. فقد عدت من المدرسة باكراً، وفتحت باب مكتبه بحثاً عن شيء ما، لا أذكر حتّى ما هو، لأجده بين أحضان ساندرين، سكرتيرته، التي كنت أشعر بالانجذاب إليها سرّاً منذ أشهر. لم يُصَب بالذعر، بل نهض وسوّى ياقة قميصه، ثمّ طلب من ساندرين أن تذهب وتنتظره عند المدخل. مرّت بجانبي في طريقها إلى الخارج، وهي تنظر إلى الأسفل. عندما أصبحنا وحدنا، قال ببرود إنّه سيكون من الأفضل للجميع ألّا أخبر أحداً بما رأيت. فأنا لا أريد أن أسبّب الألم لوالدتي، أليس كذلك؟ لا سيّما وأنّها لن تكسب شيئاً بمعرفة ما حدث هنا. غير أنّه لم يعِدني بعدم تكرار فعلته، فوالدي لا يعطي وعداً لا ينوي الوفاء به. لم أقل شيئاً، بل انسحبتُ إلى الخارج وذهبتُ إلى غرفتي.

أذكر أنّني فكّرت أنّه من التهوّر، لا بل من الجنون التصرّف على هذا النحو، وأنّ كلّ أكاذيبه ستنفجر في وجهه يوماً ما. بعد بضعة أشهر، قرّرت إخبار والدتي بكلّ شيء، والذنب يتآكلني لأنّني لم أفعل ذلك من قبل. لكن عندما أجابتني بصوتها المتّزن كالعادة: «وهل ظننتَ حقّاً أنّني لم أكن أعرف؟»، فهمتُ إلى أيّ مدى أحكَم والدي سيطرته على كلّ جانب من جوانب حياتها، وأنّنا كنّا في الحقيقة مجرّد بيادق على رقعة الشطرنج العائلية المزيّفة. منذ ذلك الحين، تمردّتُ. أطلت شعري، وبدأت أدخّن، وأستمع إلى موسيقى الميتال التي لم أكن أحبّها، لمجرّد أنّها تثير أعصاب والدي. كما وضعتُ وشماً وعندما بلغت السنّ القانونية، أخذت دروساً في قيادة الدرّاجات النارية. رحت أقيم علاقة مع فتاة تلو الأخرى. كنت أبحث عن الفوضى، وأرغب في كشف سراب الحياة المثالية، الآن بعدما رأيت جانبها السفلي المظلم.

اليوم، هدأتُ بالطبع، لكنّ الأثر لم يزل. لديّ حساسية من الأماكن النقية جدّاً والبيضاء جدّاً، كمنزل فاليري. لا شكّ في أنّها بداية جيّدة.

كام

في منزل فاليري كثير من الصور. إنّه الاستثناء الوحيد للأسلوب الراقي للمكان. علّقَت صوراً على الجدران، والثلّاجة، والرفوف. لفتت انتباهي واحدة على وجه الخصوص، معلّقة على الثلّاجة بمغناطيس أتى من كوبا، التُقطت في شاليه والدَي فاليري، قبل بضع سنوات. كانت حفلة فاليري، وكان ديف، صديقها، واليوم خطيبها، قد نظّم لها حفلة مفاجئة. في الصورة، يظهر عدّة أصدقاء يحتسون الشراب على الرصيف خلف المنزل. وتظهر فاليري في الوسط مع قبّعة احتفالية على رأسها، وفي الخلفية، بالقرب من الماء، جلسنا أنا وفيكتور. كنت أضحك بينما ينظر إليّ، وبدونا سعيدين وفي حالة حبّ. جعلتني الصورة أبتسم قليلاً، وذكّرتني أنّني عشت لحظات جميلة أيضاً. كما ذكّرتني المياه بأبي، فلطالما فكّرت أنّه سيحبّ الصيد بالقرب من شاليه والدَي فاليري.

من الغريب أنّ فيكتور لم يكن يعجِب أبي حقّاً. صحيح أنّه لم يكن يكرهه، لكنّه لم يفهم تماماً ما الذي أجده فيه. فأبي ابن قرية صغيرة، ورجل بسيط يعمل نجّاراً ولا يهوى الرفاهية. أمّا فيكتور، فهو ابن أسرة ثرية، يعيش أسلوب حياة عصري، شعره مسرّح دائماً بعناية. لم يستطع والدي أن يتخيّل شخصاً ينفق كلّ هذا الوقت «لتسريح شعره بحيث لا يبدو مسرّحاً» أو «يحلق صدره ليبدو مراهقاً لم يبلغ بعد». أمّا فيكتور، فكان يستغرب تفضيل والدي للشراب التقليدي على الأنواع التي يحاول تعريفه عليها. منذ بداية علاقتي به، قبلت أنّ التيّار لن يمرّ بارتياح بينهما. ولم يكن الأمر مؤلماً، بل واضحاً. لم يزعجني ذلك لأنّنا لم نكن نذهب إلى قريتي كثيراً على أيّ حال. وربّما، كنت أعرف في أعماقي أنّ علاقتنا لن تنجح أنا وفيكتور، ولذلك لم يكن الأمر يستحقّ القلق.

في يوم الميلاد الأوّل بعد انفصالي عن فيكتور، كنت أثير جنون ماكس بموسيقى الميلاد على طريق بارك لورانتيد المكسوّ بالثلوج (الملقّب بالحديقة الصغيرة في المنطقة) والمؤدّي إلى مسقط رأسي. كان قد اتّصل بي مذعوراً قبل يومين قائلاً إنّ والديه ذاهبان إلى جزر الكاريبي وإنّه يبحث عن خطّة لتجنّب مرافقتهما. كانت شقيقتي الصغرى قد ذهبت في رحلة، إلى مكان ما في آسيا، وكان والدي بمفرده. فتمّ ترتيب المسألة في أقلّ من خمس دقائق.

كنت أكثر توتّراً بشأن تقديم ماكس لأبي ممّا كنت عليه في حالة فيكتور. ربّما لأنّ ماكس كان هو الآخر ابن أسرة ثرية، على الرغم من أنّه أقلّ اهتماماً بشكله من فيكتور. لكنّ السبب في الغالب أنّه على الرغم من إخبار أبي أنّ ماكس كان مجرّد صديق، إلّا أنّه لم يصدّقني. فقد سألني على الهاتف في الليلة السابقة: «لم أسمع قطّ عن فتاة تجلب شابّاً هو مجرّد صديق إلى منزل أسرتها في الميلاد. أيّ نوع من الأصدقاء هذا؟». فأجبته ببساطة: «إنّه من النوع الذي هو ماكس بالنسبة إليّ». يبدو أنّني ورثت مشاعري الهشّة وإبداعي عن والدتي. أمّا عنادي، فهو بلا شكّ قربان أبوي.

«تبدين متوتّرة يا عزيزتي. ما الأمر، هل تعتقدين أنّ والدك لن يحبّني؟».

غمرت شمس ديسمبر السيّارة التي كانت دافئة من الداخل، على الرغم من المنظر الذي يحيط بها والذي بدا متجمّداً في الهواء البارد إلى حدّ أنّه قد يتفتّت في أيّ لحظة. تصاعد من المذياع صوت مايكل بوبليه يغنّي أغاني الشتاء.

«إلى حدّ ما، بصراحة».

«لماذا؟ الآباء يعشقونني عادة».

ألقيت عليه نظرة مرتابة. فشرح قائلاً:

«أتحدّث عن الآباء بالمعنى الواسع بالطبع. عموماً، كلّ الآباء يحبّونني... ماعدا أبويّ».

غمزني بطريقة ماكرة. (قليلون هم الأشخاص الذي يستطيعون أن يغمزوا من دون أن يبدوا سخيفين تماماً، وماكس واحد من أولئك القلّة).

«علاوة على ذلك، أنا أملك ميزة على فيكتور».

«وما هي؟».

«لسنا على علاقة أنا وأنت».

أبقيتُ عيني على الطريق. تجمّد الهواء قليلاً أيضاً في الشرنقة الدافئة لسيّارتي، ثمّ انقضت اللحظة. فقد أصبحنا بارعَين في التعامل مع هذه التلميحات الغامضة.

حرصاً منّي على أن تسير الأمسية على ما يرام، حضّرت مواضيع للمحادثة، ونكاتاً، وألعاباً، أي أنّني أعددت العدّة الكاملة. أخيراً، وصل ماكس وصافح أبي، ثمّ رمق الرجلان بعضهما من الرأس إلى أخمص القدمين مثل ديكين. بعد ذلك، تلاشت ابتسامة ماكس عندما لاحظ شيئاً في آخر الغرفة.

«أهذه...».

دخل غرفة المعيشة، وانحنى أمام عشرات صنانير الصيد المسندة إلى الجدار. من الواضح أنّ طراز إحداها قد لفت انتباهه. تبع والدي ماكس بنظره، ثمّ ظهرت شرارة فيهما عندما رآه يتحسّس إحدى صنانير الصيد.

«هل تمارس الصيد؟».

«وهل هذا سؤال؟».

«المعذرة؟».

«نعم، أنا أحبّ الصيد. كلّ ما يبعدني عن العالم، والمدينة، وعن والديّ يملأني ببهجة لا أجد الكلمات الوافية ليصفها. أيّ نوع من البهجة يا كام؟».

«عارمة؟».

«نعم، شكراً».

كانت الكلمة الوحيدة التي لفظتُها لفترة طويلة. فقد ضاعا في نقاش ساخن حول أنواع الخطّافات، والبقع المناسبة لأسماك السلمون المرقّط، مصحوبة بكأسين من شراب والدي المفضّل.

بعد ذلك بوقت طويل، نهض ماكس بكسل، وهتف قائلاً: «آه! لقد أحضرت شيئاً!».

«ماكس...».

أذكر أنّ والدي لم يحبّ هديّة فيكتور في العام السابق، فخشيت أن يتعكّر صفو صداقته الجميلة مع ماكس فجأة.

قال أمام أبي الذي كان ينظر إليّ بعينين ضاحكتين: «لا، لا، ثقي بي».

أخرج زجاجة شراب من حقيبته ووضعها على الطاولة. لم أكن أعرف العلامة التجارية، لكنّ وجه أبي أظهر لي بوضوح أنّ ماكس فاز للتوّ بنقاط لصالحه.

«لديك ذوق جيّد أيّها الشابّ».

ضحك ماكس وهو يصبّ لنا ثلاثة كؤوس: «هذا ما أسمعه دائماً».

كان الشراب قويّاً جدّاً بالنسبة إليّ بعد سهرة طويلة كهذه. أمّا الرجلان، فقد استمتعا تماماً، وكان هذا كافياً بالنسبة إليّ.

«لماذا لا تواعد ابنتي، أيّها الشابّ؟ ألا تراها مناسبة لك؟».

«أبي!».

شعرت بالذعر، بينما رمق أبي وماكس بعضهما البعض. أخيراً أجاب ماكس بهدوء: «هذا ليس سؤالاً حقيقياً، فكلانا يعرف أنّ هذا ليس صحيحاً».

«نقطة جيّدة».

«من جهة أخرى، كام... تشبه سمكة سلمون قوس قزح محاصَرة في ركن صخري».

لم أفهم شيئاً، لكنّ والدي أومأ برأسه موافقاً، كما لو أنّ ماكس تفوّه للتوّ بحكمة عظيمة. وما لبثا أن غيّرا الموضوع.

لاحقاً، بينما كان ماكس في غرفة الضيوف، جازفتُ بسؤال والدي: «ما قصّة سمك السلمون بين الصخور».

علت ابتسامة عينيه.

«لكانت والدتك أحبّته».

فوجئت بتعليقه، لأنّه نادراً ما يتحدّث عن والدتي.

«حقّاً؟».

«نعم».

تابع مسح الأطباق بصمت وشرود، ثمّ قال أخيراً: «عليك أن تأخذي وقتك».

«ماذا؟».

وضع آخر طبق في الخزانة، وألقى بالمنشفة على الطاولة.

«مع سلمون قوس قزح، عليك أن تأخذي وقتك».

ماكس

كنت متّكئاً إلى جزيرة المطبخ الرخامية في مطبخ فاليري بالغ النظافة، أتناول بقايا الأضلاع، وحيداً في ركني. كنت أشعر بعدم الارتياح في هذه الأمسية التي لم أكن فيها في مكاني. امتنعت عن تمرير أصابعي القذرة على الجدار قبل أن أنصرف، فقد عرفت أنّها ستلاحقني لتتشاجر معي. في الواقع، لا أعرف ما إذا كنت أتحدّث عن فاليري أم عن كام. ربّما كلاهما، ولكن ليس للأسباب نفسها. فأنا لم أحظَ حتّى بدقيقة واحدة مع كام بعد، وقد بدأت أعتقد أنّ فكرة المجيء إلى هنا لم تكن صائبة.

«كنتُ على حقّ في النهاية، أليس كذلك؟».

كان صوت فاليري. تنهّدتُ وأنا أفكّر أنّه لا صبر لديّ في هذه اللحظة لمواجهتها.

«كما هو الحال دائماً، أنا واثق».

«صحيح، باستثناء أنّني أتحدّث هنا عن الأضلاع».

أتت للجلوس أمامي، بخدّين ورديّين، وعينين متألّقتين. من الواضح أنّها أكثرت من الشراب.

«ما الذي يجري بينكما أنت وكام؟».

«اسمعي، ليس الأمر أنّني لا أريد أن أتحدّث معك عن ذلك يا فاليري، ولكن أفضّل ألّا تتدخّلي».

سمعت المستوى العالي من اللؤم في صوتي. فتركتُ الطعام من يدي في الطبق، وقد تلاشى إحساسي بالجوع فجأة.

توقّعت من فاليري أن تستاء وتطردني، ولكان ذلك مناسباً لي بصراحة. غير أنّها اكتفت بالنظر إليّ على طريقتها كما لو أنّني لا أفقه من الأمر شيئاً. وهذا أحد أسباب عداوتي تجاهها، ذاك الشعور أنّه عليّ دائماً أن أثبت لها أنّني شابٌ كبير. وأنا أحاول أن أحدّ في حياتي من الأشخاص الذين يجعلونني أشعر بعدم الارتياح تجاه نفسي.

أخذَت رشفة أخرى من شرابها واتّكأت على ساعديها أمامي.

«جرّبني، فأنا أعرفها جيّداً، حتّى لو كان الاعتراف بذلك يقتلك».

«هذا لا يقتلني، غير أنّه لا يفرحني ببساطة».

ارتسمت نصف ابتسامة على وجهَينا. بدأت الديناميكية تتغيّر قليلاً، وهذا أمر غريب، لكنّه ليس مزعجاً. لقد سجّلَت نقطة لصالحها، هذا صحيح.

قلت وأنا أمسح فمي الملطّخ بصلصة الشواء: «سأروي لك بإيجاز».

«حسناً، ليس لديّ المساء كلّه».

منحتني نصف ابتسامة أخرى. لم أكن أعرف أنّ فاليري ساخرة إلى هذا الحدّ. فلطالما وجدتها مستقيمة للغاية، لكن لا بدّ لي من الاعتراف أيضاً أنّني لم أحاول أخذ الوقت الكافي للتعرّف إليها.

أخبرتها عن المسافة، والشكوك، والعلاقة المتقلّبة بيني وبين كام، قبل أن أختتم قائلاً: «أنا لا أريد أن أؤذيها، هذا صعب».

«ما هو الصعب؟ اشرح لي من فضلك».

كان سؤالاً جيّداً. في الواقع، يفاجئني أن أكون منفتحاً على هذا النحو مع فاليري، أكثر ممّا يمكنني أن أكون مع كام. الأمر أسهل لأنّ فاليري ليست متورّطة بشكل مباشر في المسألة. ولن

يكون من السهل إلى هذا الحدّ الاعتراف لكام بكلّ هذا، لأنّ إجابتها ستكون أكثر أهمّية بالنسبة إليّ من كلامي.

«أعتقد أنّ الصعب في الأمر أنّني صديقها. ولذلك أريد الأفضل لها...».

«وتعتقد أنّك لست الأفضل لها؟».

من المؤلم سماع ذلك يقال بصراحة، من فم فاليري. من المؤلم أيضاً أن أدرك أنّ هذا رأيي بنفسي. لكن على أيّ حال، كيف يكون الحال خلاف ذلك؟ فقد عبر حياتي طابور طويل من الفتيات ولم يبقَ منهنّ أحد. رأيت نفسي، موعداً تلو الآخر، أجد فيهنّ آلاف العيوب: شعر أشقر زائف، أو أسنان كبيرة جدّاً، أو حواجب متقاربة جدّاً. كما رأيت نفسي أنسلّ بعيداً بمجرّد أن تصبح المسألة جدّية. ولن أتمكّن أبداً من النظر إلى نفسي في المرآة إذا فعلت ذلك بكام.

راقبتني فاليري كما لو كانت تقرأ أفكاري. وللمرّة الأولى، شعرت أنّها قد لا تكون مخطئة تماماً في حذرها حيالي. إن كنت أملك، أنا نفسي، شكوكاً تجاه أفعالي، فكيف ألوم فاليري على تردّدها؟

«لا أعرف، لم أعد أعرف... بما أنّني صديقها، من الصعب عليّ أن أحكم».

تنهّدت فاليري واعتدلت في جلستها قليلاً. بدت أفكارها جليّة فجأة.

«حسناً، فلنوضح أمراً بشكل نهائي. أنت لست صديقها».

«المعذرة؟».

«أنت لست صديقها، أنا صديقتها».

«ماذا-».

«هلّا أعطيتني فرصة لأشرح قصدي؟».

لزمتُ الصمت، وكان ذلك أفضل ما يمكنني فعله في الوقت الحالي، لأنّني شعرت بموجة غضب تتصاعد في حلقي. قالت فاليري:

«هل فكّرت بها دائماً كصديقة؟ هل تساءلت يوماً كيف سيكون الأمر إذا لمستها؟ أو عندما تأتي إليك لتزفّ لك خبراً سارّاً، هل رغبتَ يوماً في عناقها؟ عندما تكون حزينة، ألا تفكّر في تمرير أصابعك عبر شعرها إلى أن ينقضي حزنها؟ هل سبق وقلت في نفسك خلال موعد مع فتاة ما، إنّها جيّدة، ولكنّ كام ستكون أفضل؟ كام أجمل ومسلّية أكثر وأفضل منها على جميع الصعد؟».

صمتت فاليري قليلاً، قبل أن توجّه لي الضربة الأخيرة:

«أنت لست صديقها يا ماكس. أنا لم أفكّر بها يوماً بهذه الطريقة. هكذا يكون الأصدقاء».

لم ألزم الصمت بسبب غضبي، بل لأنّ ما قالته تركني عاجزاً عن الكلام. فقد وصفَت للتوّ ما أشعر به تماماً كلّما رأيت كام. لم تكن لديّ فكرة أنّ فاليري تتمتّع بهذه البصيرة الثاقبة إزاء علاقتي بكام، بل ظننتها لا تفهم الكثير في هذا المجال. أنا أميل حقّاً إلى التقليل من شأن الناس أحياناً.

راقبتني أكافح مع الحقيقة التي ألقتها في وجهي. بدا خدّاها أكثر احمراراً من ذي قبل، بسبب خطابها الوجداني هذه المرّة... أخيراً، أضافت بلطف أكبر:

«أعلم أنّك تخشى ألّا تكون كافياً... يمكنني أن أفهم ذلك».

لم أجرؤ على سؤالها ما إذا كانت تعني بكلامها أنّه لا بأس من طرح التساؤلات، أم أنّني بالفعل لا أصلُح لكام. لا أريد حقّاً أن أعرف الجواب الليلة. أمام صمتي، تابعت فاليري:

«ماذا عنها، ما رأيها؟ هل سألتَها من قبل؟».

«ليس بهذه العبارات، كلّا».

«كنت أعلم. يا لكما من جبانَين!».

«جبانَين؟».

«نعم، مفهومكما للحياة أنّكما لا تعيشان سوى مرّة واحدة، وأنّكما تملكان روحاً حرّة، وما إلى ذلك».

صحيح أنّها نطقت عبارتها الأخيرة بلكنتها، لكنّني فهمت المبدأ.

«أنتما مقتنعان أنّكما تحميان صداقتكما من خلال التصرّف على هذا النحو، لكن هل أنتما سعيدان حقّاً؟».

ناداها صديقها من الفناء، ممّا وفّر عليّ حرج الإجابة على هذا السؤال. قبل مغادرة الغرفة، قالت فاليري:

«فكّر في الأمر يا ماكس، هذا كلّ ما أطلبه منك. بعد ذلك، افعل ما تشاء، ولكن إذا أردت رأيي، ثمّة أشياء في الحياة لا ينبغي تفويتها».

تركتني هناك، وسط بقايا الطعام وأزمتي الوجودية. كانت على حقّ في النهاية، وأنا لا أتحدّث هنا عن الأضلاع.

كام

بدأ الناس يغادرون، ولكنّني بقيت جالسة باسترخاء أمام الموقد. على الرغم من الجوّ البارد في الخارج، إلّا أنّني شعرت بالدفء بالقرب من النار، بعد أن ارتديت سترة قطنية أعارني إيّاها ديف. كان ديف جالساً بجواري، يحتسي شرابه بشرود، فسألته:

«آمل ألّا تكون تحضيرات الزفاف مرهقة».

ابتسم مجيباً: «كلّا. كما أنّك تعرفين فاليري. وتعلمين أنّه ليس لديّ رأي في كلّ هذا على أيّ حال».

«ألا يزعجك هذا؟».

«بالطبع لا، فهو يجعلها سعيدة، وهذا يناسبني».

أنهى شرابه في رشفات قليلة، ثمّ نهض قائلاً:

«على أيّ حال، لا شكّ في أنّها بحاجة إلى المساعدة مع الأطباق».

اعتذر وعاد إلى الداخل، بينما واصلتُ احتساء شرابي مستمتعة بوحدتي. كنت قد شربت أكثر ممّا نويت هذه الليلة وسأضطرّ للبقاء والنوم هنا. ولا شكّ أنّ وجود ماكس واضطراري لتجنّبه طوال الأمسية هو ما دفعني إلى ذلك.

سمعت باب الفناء ينزلق خلفي. لم أدر رأسي لأرى من يقترب، إذ شعرت أنّني أضعف من أن أتحرّك. جلس ماكس على المقعد المجاور لي.

«لا بدّ لي من الاعتراف لفاليري أنّها تجيد إقامة حفلات الاستقبال».

لم أجبه. تحرّك على المقعد، محاولاً إيجاد وضعية مريحة. نظرنا إلى النار للحظات بصمت، ثمّ تنهّد قائلاً:

«أنا أشعر بالملل».

«أعرف».

أخذت رشفة من الشراب لحلّ عقدة لساني. وتمكّنت من القول أخيراً: «أنا أيضاً».

«أعرف».

«إذاً، ماذا نفعل؟».

«ننجو بأنفسنا».

ضحكتُ بصوت خافت. كان الجوّ يفوح برائحة الخريف والنار، وكنّا نُجري محادثة كبيرة تسير حتّى الآن على ما يرام. إلى أين ستقودنا؟ ليست لديّ أدنى فكرة. حدّق ماكس إلى الموقد، ثمّ تابع قائلاً:

«أخبرتني فاليري أنّني لست صديقك».

«أعرف، فهي عالقة عند هذه النقطة منذ أن عرفنا بعضنا البعض».

«ربّما هي على حقّ».

«عفواً؟».

أدرت رأسي تجاهه فاغرة الفاه، بينما أبعد نظره عن ألسنة اللهب وثبّته على عينيّ.

«تقول إنّني لست صديقك حقّاً، وإنّ الصديق لا يفكّر، أو يتصرّف، أو يكون هكذا. ولا يمكنني الاعتراض على كلامها، فأنا لست صديقك...».

«لست، أم لا تريد أن تكون؟».

شعرت أنّ الهواء أصبح معلّقاً بيننا، وأنّه تجمّد تقريباً. ولو مددت يدي، لاستطعت لمسه، غير أنّني لم أجرؤ على التحرّك قيد أنملة.

«لم أعد أريد أن أكون، على ما أظنّ. أريد أن أكون أكثر من ذلك، لا بل لطالما أردت أن أكون أكثر من ذلك».

«ليس هذا ما قلته لي حينذاك».

«كان الأمر مختلفاً حينذاك».

«نعم، والآن أصبح صعباً».

«لماذا؟».

«لقد قطعنا شوطاً بعيداً يا ماكس. انظر ما حدث هذا الأسبوع، هل أعجبك ذلك؟».

نظر إلى النار مجدّداً، وتراقص ضوء اللهب على وجهه. بدا أحمر الشعر حقّاً في تلك اللحظة، ووجدته وسيماً للغاية. لم يكن هذا بالجديد على ما أعتقد، فلطالما كان وسيماً. الجديد أنّني أعطي نفسي الحقّ في التفكير فيه على هذا النحو.

«على أيّ حال، أنا أجده صعباً. علاوة على ذلك، نحن لم نتوقّف عن الحديث مع بعضنا البعض. صحيح أنّ كان الأمر محرجاً أكثر من المعتاد، لكنّه لم يكن غياباً تامّاً في الاتّصال. ولكن، ماذا لو حدث ذلك؟ ماذا لو ساءت الأمور؟».

«وماذا لو لم تسوء، ماذا لو حدث العكس؟».

«أعلم أنّ هذا ما تريد تصديقه، لكنّنا نعلم جيّداً، أنا وأنت، إلى أيّ مدى نحن عاجزان عن التحكّم بذلك، وإلى أيّ مدى نحن فاشلان في هذا المجال».

توتّرت عضلات فكّه. أردت أن أضع يدي هناك، على النقطة التي تلتقي فيها زاوية فكه برقبته، وأشعر بعضلاته تتوتّر ثمّ تسترخي تحت أصابعي، لكنّني أمسكت نفسي مجدّداً، فقد تعلّمت جيداً كيف أتحكّم بنفسي.

«لقد وصلت إلى النقطة التي أودّ فيها أن أصدّق أنّنا، لمرّة واحدة، يمكننا أن ننجح. أودّ أن أجرّب».

«لا تقل أشياء ستندم عليها لاحقاً يا ماكس».

«حسناً، أنت خائفة، وأنا كذلك. هذا طبيعي، على ما أعتقد. لكن هل ستتمكّنين من العيش مع هذا الأمر طوال حياتك؟».

«أيّ أمر؟».

«ماذا لو. أنت تعلمين أنّنا مرتاحان الآن لأنّنا ما زلنا عازبين ولم يدخل حياتنا سوى أشخاص عابرين بلا أهمّية. ولكن ماذا سنفعل عندما يتغيّر الوضع؟ هل ستتمكّنين من البقاء كما أنت معي إذا أحضرت فتاة أخرى إلى حفلات غداء أبي؟».

«بإمكاني الاستغناء عن حفلات غداء أبيك بدون مشاكل».

«أنت تفهمين جيّداً ما أعنيه».

سيطرت على عينيه حدّةٌ قاسية. نادراً ما يكون ماكس قاسياً معي، فقط عندما يعلم أنّه على حقّ. وأنا أعلم ذلك أيضاً، في أعماقي. أعرف أنّ كلّ شيء، حتّى لقاءات الغداء مع عائلته، ستكون خيانة إذا لم أكن أنا مَن يرافقه. لا يهمّني كم يمكن أن يكون والده نرجسياً وبغيضاً، ما دمت أنا المسؤولة عن رفع معنوياته بعد ذلك، وليس امرأة أخرى! أنا، أنا وحدي.

«على أيّ حال، أنا أعلم أنّني لن أتمكّن من ذلك. لا أريد أن يشارك رجلٌ آخر والدَك الشراب ويتحدّث معه عن الصيد، لن أحتمل ذلك».

قرّب مقعده من مقعدي ومال نحوي. كان وجهه قريباً من وجهي عندما وضع يده على خدّي، بحركة خفية عابرة، بحيث تساءلت ما إذا كنت أتخيّل. راح قلبي ينبض بجنون في صدري.

«ماكس...».

«لن أعانقك».

«أوه».

«سأفعل، ولكن ليس الآن، سأفعل عندما تصبحين جاهزة. لكن عليك أن تعرفي أنّني لا أستطيع الاستمرار في العيش بهذه الطريقة أكثر».

نهض متّجهاً إلى الباب، وتركني أشعر بعطش شديد، عطش إليه، غير أنّني لم أتحرّك. من الغريب أن يشعر المرء بالعطش إلى شخص آخر، وهذا شعور مؤلم أكثر بكثير من العطش إلى الماء. سألته من دون تفكير:

«وكيف ستعرف؟».

«أعرف ماذا؟».

توقّف واستدار قليلاً نحوي. لم أستطع أن أرى سوى جزء صغير من وجهه، لكنّ هذا كان كافياً، فبإمكاني تخيّل الباقي.

«متى يمكنك عناقي».

«سأعرف، ثقي بي».

بدا الأمر بسيطاً جدّاً، أن أثق به، وأترك نفسي له. ولكن لو كانت الأمور حقّاً بهذه البساطة، أما كانت كلّ مشاكلنا قد حلّت الآن؟

ماكس

لطالما أحببت الكلاب. لم أحصل على كلب من قبل، مع أنّه استثمار مغرٍ بالنسبة إلى طفل وحيد مع والدين دائمَي الانشغال أو غير مهتمَّين بما فيه الكفاية لتمضية وقت معه. كنت أطالبهما باستمرار بشراء كلب لي، لكنّهما تذرّعا دائماً بالحجج لرفض طلبي. فزعما أنّني لن أجيد العناية به، أو أنّه قذر، أو أنّه باهظ الثمن (ها!)، هذا فضلاً عن السؤال الدائم: ماذا سنفعل به عندما تملّ منه؟ ومع أنّني أكّدت لهما مراراً وتكراراً أنّني لن أملّ، إلّا أنّهما لم يصدّقاني. صحيح أنّني كنت ميّالاً إلى تبديل رأيي كثيراً، ولكن لاختلف الأمر مع الكلب، ولأحببته حقّاً. وهذا دليل آخر على أنّ والديّ لم يفهماني يوماً.

كان لدى فلورانس هرّ. في زيارتي الأولى إلى منزلها، كان الهرّ مستلقياً على ظهر الأريكة. راقبني أدخل بجدّية. كان جميلاً، أحمر الوبر، وأخضر العينين. اقتربت منه فلورانس ومرّرت يدها عليه.

سألتني مبتسمة: «ألا تعتقد أنّه يشبهك؟».

شاهدت الحيوان يذوب تحت لمسة يدها، وهو يخرخر بسرور يشبه إلى حدّ ما النوع الذي كنت أتمنّى منحه لفلورانس في المستقبل غير البعيد.

أجبت بدافع العادة: «أنا لست أحمر الشعر».

اقتربتُ بدوري وحاولت تقليد مداعبات فلورانس، فتلقّيت معاملة مختلفة تماماً. إذ تصلّب الهرّ، وماء كما لو أنّه شاهد للتوّ جثّة. ثمّ قوّس ظهره، وذهب للاختباء في مكان ما، في زاوية من

الشقّة لا تعرف سوى القطط الوصول إليها.

قلت لفلورانس بنبرة انزعاج: «هرّك ليس اجتماعياً حقّاً».

«هذا غريب، فمن عادته الالتصاق بالناس».

وهكذا بقي الأمر بيننا. ففيما بعد، كلّما عدت إلى منزلها، حاولت ترويض هرّها. في البداية كان ذلك لأنّني أردت الحصول على شيء من حبّ القطط، ولاحقاً، لأنّ كبريائي لم يتقبّل أن أكون الإنسان الوحيد الذي لم يألفه هذا الهرّ. كما أنّني لم أكن معتاداً على أن أواجَه بالرفض، وبالنسبة إلى هذا الهرّ، كان الرفض قاطعاً.

في إحدى الأمسيات، كنّا نشاهد نتفليكس في منزلها، فجاء الهرّ واستلقى بيننا. وبمجرّد أن هممتُ بمداعبته، قفز واختبأ تحت الأريكة. فتنهّدتُ بانزعاج، بينما ابتسمت فلورانس قائلة:

«لا تأخذ الأمر بهذا الشكل، فهو يذكّرني بك كثيراً».

«لست متأكّداً من أنّني أشعر بالإطراء...».

«لماذا؟».

«إنّه عدائي حقّاً».

«هو ليس عدائياً، بل انتقائياً وحسب».

نظرت إليّ بعينيها الكبيرتين الجميلتين، وأدركتُ أنّها كانت تحاول إيصال رسالة. كان ذلك في بداياتنا، ولم نكن قد اعترفنا بحبّنا لبعضنا البعض، لكنّني علمت أنّ الكلمات كانت تحرق شفتيها. واصلت التحديق إليّ مترقّبة، ولكنّني في تلك اللحظة لم أكن مستعدّاً. أخيراً، طبعتُ على جبينها قبلة حاولتُ أن أحمّلها كل ما لديّ من عاطفة، لعدم إحساسي بالحبّ. غير أنّ ذلك لم يكن كافياً، إذ تراجعَت في النهاية، وأضافت بحدّة هي وحدها قادرة على إظهارها في كلامها:

«هرّي ليس عدائياً، عدم حبّه لك يزعجك لأنّه، وللمرّة الأولى، لا يختارك أحدهم».

كام

في اليوم التالي لحفل الشواء لدى فاليري، قرّرت أن أقود سيّارتي لبضع ساعات من دون وجهة محدّدة، لمجرّد القيادة. كنت أشعر بالسأم من الماجستير، ومن عملي، ومن ماكس، ومن نفسي خصوصاً. من الصعب أن يهرب المرء من نفسه. والجلوس خلف عجلة القيادة من دون إخبار أحد، أو التخطيط للمكان الذي أذهب إليه، أو الوقت الذي سأعود فيه، كان أقرب ما أمكنني التفكير فيه للهرب – كما أنّه الوسيلة الأقلّ كلفة أيضاً. لكنت ذهبت للعناية بجسدي في بالي، ولكنّنا لا نملك جميعاً الوسائل اللازمة لقضاء إجازة عصرية.

لطالما كان للطريق تأثير مريح عليّ. ربّما لأنّ أبي اعتاد أن يصطحبني وأنا طفلة في نزهة في شاحنته القديمة على ضفاف البحيرة، كلّما طال بكائي ولم يجد سبيلاً لتهدئتي. ربّما أيضاً لأنّه، بعد وفاة والدتي، أصبح ذلك طقساً من طقوسنا أنا وأبي وأختي. فبعد ظهر يوم الأحد، كنّا نركب المقعد الوحيد لسيّارته الفورد 1985، ويقود بنا من دون وجهة محدّدة، على وقع الموسيقى الريفية المتصاعدة من المذياع. فنشارك في الغناء مع جون دنفر أو كيني روجرز أغانيهما الهادئة والقديمة، من دون أن نعرف الكلمات حقّاً، بل نعلم فقط أنّها تتحدّث عن الطرق الترابية التي لا تنتهي والحبّ الجميل كما في الكتب. كان يقود حتّى ننسى أنّه علينا العودة يوماً. ولم نكن نتحدّث كثيراً، لا بل قد لا نتحدّث إطلاقاً. فقد كنّا حاضرين، وكان هذا كافياً.

في النهاية، سئمَت أختي من كلّ هذا. فعلى الرغم من أنّها كانت تصغرني سنّاً، إلّا أنّها تقدّمت في العمر أسرع منّي بكثير. ففي الثالثةعشرة أو الرابعة عشرة، كانت تفضّل الذهاب إلى الشاطئ مع أصدقائها، أو إلى السينما مع الفتيان، أو تدخين السجائر وتناول الشراب سرّاً مع شباب

مريبين إلى حدّ ما. في الواقع، لم يكن يهمّها نوع النشاط ما دام لا يشتمل علينا أنا وأبي. بذل أبي قصارى جهده معها، على الرغم من صعوبة التعامل مع فتاة تعيش أزمة مراهقة في ظلّ غياب أمّ تكون قدوة لها. في الواقع، لطالما لمتُ أختي لتخلّيها عنّا بهذه البساطة، وكأنّنا لا نصلُح لها. واستغرق الأمر منّي وقتاً لأفهم أنّ مضاعفة عدد الروابط مع الناس كانت طريقتها في حماية نفسها، في حال فقدتنا نحن أيضاً يوماً ما. إذ كانت أختي توزّع نفسها في تجارب الحبّ والصداقات العابرة، لأنّها تخشى أن تترسّخ بعمق في مكان واحد. وهي لا تزال تفعل ذلك بالمناسبة. غير أنّه من الصعب ملء فراغٍ ما إن كنّا لم نعد نعرف ما الذي يجري في القعر.

من جهتي، لم أعانِ حقّاً من أزمة مراهقة، باستثناء فترة تعلّقت فيها بموسيقى الإيمو واستمعت بكثرة إلى فرقتَي بلينك 182 ولينكن بارك، وصيفٍ صبغت فيه شعري باللون الأسود، ممّا جعلني أبدو مثل موتريشيا آدامز ولكن في نسخة غير جذّابة. وخلافاً لأختي، لم أسع قطّ إلى ملء النقص. فقد كنت أعرف أسبابه، وأعرف أنّني لن أتمكّن يوماً من ملئه. وربّما كان ذلك محزناً، لكن كان من الأسهل تقبّله. بالنسبة إليّ، كانت الطريق، وأبي، والصوت الناعم والثابت لغيتار في الخلفية أموراً مريحة بما فيه الكفاية.

أتساءل أحياناً عمّا إذا كان الوضع سيختلف لو لم أفقد والدتي. هل كنت سأتمكّن من منح ثقتي بسهولة أكبر، أو تقديم حبّي كاملاً من دون الخوف من فقدان كلّ شيء دفعة واحدة. وفي ما يتعلّق بـماكس، من السهل جدّاً إلقاء اللوم على تقلّباته العاطفية أو وسامته، أو حتّى على جميع الفتيات اللواتي عرفهنّ في حياته. غير أنّ المشكلة الحقيقية تكمن في عدم رغبتي في اقتلاع كلّ تردّداتي من جذورها لأتمكّن أخيراً من الاستسلام.

في أعماقي، ربّما لم أكن أفضل من أختي. فقد حاولَت أن تعالج نقصها من خلال إحاطة نفسها بحشد من الأصدقاء، والسفر باستمرار من بلد إلى آخر، والتنقّل من وظيفة إلى أخرى، لكي تتجنّب البقاء وحيدة مع ألمها. أمّا أنا، فمكثتُ هنا، لكنّني أهرب أنا أيضاً، على طريقتي الخاصّة، متجنّبة أن أطرح على نفسي الأسئلة التي قد تؤذيني. كثيراً ما أردّد لماكس أنّ عليه تسوية مشاكله مع والده، ولكن ألا يجدر بي أنا أيضاً معالجة مشاكلي حيال والدتي؟ غير أنّني لست قادرة، ليس بعد.

بعد عدّة ساعات من التجوال، عدت من رحلتي المرتجلة وقرّرت الاتّصال بصوفي على سكايب. نادراً ما أجد الوقت (أو بالأحرى، نادراً ما أخصّص الوقت) للاتصال بأختي، ولذلك بدا عليها الاستغراب التامّ عندما ظهرَت على الشاشة. تجمّدت الصورة للحظة على وجهها الذي لوّحته الشمس، والذي بدا لي أكثر نحولاً ممّا أذكر. كانت قد سرّحت شعرها في جدائل وأضافت وشماً جديداً على عظم الترقوة، كلمات لم أستطيع قراءتها، لأنّها وُشمت بخطّ دقيق.

سألتني على الفور: «هل أنت بخير؟».

عليّ حقّاً الاتّصال بها أكثر.

«نعم، نعم! كيف حالك، هل حصلتِ على وشم جديد؟ سيجنّ أبي حتماً».

مرّرت يدها تلقائياً على الحبر الحديث على بشرتها.

«وتشتكين من أنّني لا أتّصل بك كثيراً!».

«أنت على حقّ، أنا آسفة».

«حقّاً، هل كلّ شيء على ما يرام؟».

«نعم، نعم، أردت فقط التحدّث إليك. استغربت لأنّ الأمر تمّ بهذه السهولة، بالمناسبة...».

«لديّ شبكة واي فاي كاملة هنا. هذا يحدث مرّة في السنة، فقد قرّرت أن أدلّل نفسي قليلاً».

«هل اتّصلتِ بأبي؟».

«نعم، ولكن أعتقد أنّه ذهب إلى مخيّم الصيد».

«الأخير لهذا العام».

«الأخير لهذا العام».

تحدّثنا في الوقت نفسه، ثمّ ابتسمنا لبعضنا البعض. صحيح أنّنا لا نُظهر عاطفتنا كثيراً في أسرتي، إلّا أنّني شعرت فجأة بالرغبة في احتضان أختي الصغرى. أتساءل عمّا إذا كان السبب أنّني

عاطفية على نحو خاصّ اليوم، أم أنّ الرغبة لا تزال موجودة وتعلّمت ببساطة قمعها، شأنها شأن كثير من الأشياء الأخرى.

«كنت أفكّر فيك اليوم».

بدت عليها الدهشة، كما لو أنّه من الغريب إلى هذا الحدّ أن أفكّر في أختي بين الحين والآخر. كدتُ أنظر إلى الأعلى بسأم، ولكنّني سيطرت على أعصابي. فأنا لا أريدها أن تغضب أو نتخاصم لمدّة شهر على الأقلّ.

«ومن أين لي هذا الشرف؟».

«لا أدري، كنت أشعر بالحنين...».

«أنت تشعرين بالحنين دائماً. أنت من يجب أن تسافري بين الحين والآخر لتفريغ ذهنك».

«لا أحبّ حقّاً تفريغ ذهني... فمع الماجستير، لن يساعدني هذا كثيراً».

«على أيّ حال، من المؤكّد أنّ فرز المعلومات لن يضرّك».

«قد تكونين على حقّ».

ابتسمَت وأخذت رشفة من فنجان من الخزف. خلفها، كانت ثمّة نافذة كبيرة يدخل منها ضوء الشمس الساطع. كان هذا كلّ ما رأيته من الغرفة.

«أين أنت الآن؟».

«في أستراليا. المكان رائع هنا يا كام، ستجنّين لو رأيته».

«هل ستعودين قريباً؟».

«لا أظنّ، فأنا بخير هنا».

«هل ستبقين هناك؟».

«لا أظنّ ذلك أيضاً».

«أتعلمين، يوماً ما عليك أن تكفّي عن الترحال».

بدا عليها الاستياء.

«أتعلمين، يوماً ما عليك التعوّد على فكرة أنّني لم أُخلق للبقاء في المكان نفسه طويلاً».

«كلّ هذا موجود في رأسك يا صوفي».

«ربّما، ولكن هذا لا يعني أنّه ليس صحيحاً».

خيّم علينا الصمت. غالباً ما يكون الأمر كذلك مع صوفي. فنحن غير قادرتين على التحدّث من دون أن ينتهي بنا المطاف بإلقاء اللوم على بعضنا البعض. لا أوافق على حياتها، ولا تفهم حياتي، وعلى عكس علاقتي مع فاليري أو ماكس، نحن نرفض أن نتقبّل عدم اتّفاقنا، مع أنّه من المنطقي أن يكون التواصل أسهل مع أفراد الأسرة. لكن على ما يبدو، لا يكفي أن نتشارك الحمض النووي نفسه لكي نكون مؤهّلتين للتفاهم. أخيراً، حاولَت فتح حديث آخر: «كيف حال ماكس؟».

التقت صوفي بماكس مرّة واحدة عندما كانت في زيارة عابرة إلى كيبيك، بين محطّتين متوجّهة إلى آسيا. مرّة واحدة فقط، وكانت كافية لإقناعها أنّنا أنا وماكس خُلقنا لبعضنا البعض. وأكّدت أنّني إذا لم أكن نبيهة بما فيه الكفاية لإدراك ذلك، فلن تتردّد في تجربة حظّها معه. تجادلنا حول ذلك أيضاً. «لا يمكنك أن تكوني صديقته وحسب وأن ترفضي السماح له بأن يحبّ فتاة غيرك». تلك كانت حجّتها، وكانت على حقّ، بطبيعة الحال. وبالتأكيد، لم أخبره بذلك قطّ.

حاولتُ أن أجيب بلا مبالاة.

«بخير».

«أما زال وسيماً؟».

«صوفي...».

«حسناً، ألم تحدث أيّ مستجدّات؟ هل أفهم أنّكما لا تخرجان معاً بعد؟».

«كلّا...».

«ألن يحدث ذلك في المستقبل على الأقلّ؟».

«لا أعرف، علاقتنا معقّدة».

«مع كلّ هذه الوسامة التي يتمتّع بها، لا أرى سبباً للتعقيد!».

أجبتها بانزعاج: «ثمّة شروط أهمّ من الوسامة لإنجاح علاقة يا صوفي».

«أعلم بالطبع، أنا أمزح معك. حسناً، ولكن حقّاً...».

«ماذا؟».

بدلاً من الإجابة، عضّت على إبهامها، وبدا عليها التفكير في ما ستقوله لي. رأيت نفسي في هذه الحركة. رأيت أمّي أيضاً إلى حدّ ما، وأعتقد أنّ هذا أحد الأسباب التي تجعل التحدّث إلى أختي جميلاً ومؤلماً على حدّ سواء. فأنا لا أتذكّر والدتي جيّداً، وقد نسيت كثيراً من تفاصيلها، لكن كلّما رأيت صوفي، عادت إليّ موجة من الذكريات. ولبضع لحظات، أرجع بالزمن إلى الوراء.

«ماذا يا صوفي؟».

«حسناً، ما أريد قوله إنّك تلومينني منذ سنوات لأنّني أهرب. ولا أعرف ما إذا كان هذا صحيحاً، ربّما هو كذلك. على أيّ حال، التنقّل والسفر يمنحانني السعادة. لكن ثمّة طرقاً عديدة للهرب. فمن الناس من يذهب إلى الجانب الآخر من العالم، ومنهم من يبقى في مكانه. وكونك لا تتنقّلين لا يعني أنّك لا تهربين أنت الأخرى».

«أعرف يا صوفي، وأنا أعمل على ذلك».

«على عدم الهرب؟».

«نعم».

ابتسمَت بشيء من الحزن. أختي الصغرى جميلة، حتّى عندما لا تبتسم كثيراً. أضافت بلطف: «أخبريني عندما تنجحين، فقد أجرّب يوماً ما».

ماكس

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف، ولكن بدا الأمر وكأنّها الثامنة والنصف مساء، إذ كانت تمطر بغزارة منذ بداية النهار، ولفحني البرد في طريقي إلى العمل هذا الصباح وسيبقى في عظامي إلى أن أستحمّ بالماء الساخن عندما أصل إلى المنزل هذه الليلة. وعدت نفسي بالبقاء تحت المياه الحارقة لمدّة ساعة ونصف على الأقلّ.

لن أفهم يوماً الأشخاص الذين يحبّون الخريف. نعم، ولكن أوراق الشجر، نعم، ولكن الألوان. فلنوضح أمراً: تتلوّن الأوراق بهذا اللون لأنّها تموت. وهذا ليس جميلاً، بل مأساوياً. حسناً، ثمّة أسبوعان تتلوّن فيهما الطبيعة باللونين الأحمر والبرتقالي، ولكن بعد ذلك، فلنتّفق على أنّ خمسين ظلّاً من اللون الرمادي تسود الطبيعة، ولنتّفق أيضاً على أنّ خمسين ظلّاً من اللون الرمادي ليست أمراً قبيحاً وحسب، بل ومحبط أيضاً.

يجعلني الخريف مرابطاً.

كنت أتناول الغداء على مكتبي، وقد نسيت أن أحضر لنفسي تحلية، كما أشعر باستياء من الحياة بشكل عامّ. اهتزّ هاتفي في جيبي، وكانت والدتي هي المتّصلة. على مقياس الأشياء التي لا أحتاج إليها حاليّاً، كان هذا الأمر يحتلّ مرتبة عالية جدّاً، تماماً أسفل تمدّد الأوعية الدموية. وإذا غرقتُ أكثر في اكتئابي الموسمي، فسيتعيّن عليّ بالتأكيد إعادة النظر في هذا الترتيب.

على الأقلّ، لم يكن أبي هو المتّصل. فأنا أدير علاقتي مع أمّي بشكل أفضل، وإن لم أكن في مزاج جيّد للتحدّث معها اليوم. مع ذلك، من النادر أن تتّصل بي، ولذلك أجبت، خشية أن يكون ثمّة

حالة طوارئ حقيقية، لأنّني ما زلت أتحلّى بشيء من الضمير على ما أعتقد.

«ألو».

«ألو، مكسيم، أنا أمّك».

«أنا مصدوم».

تنسى والدتي دائماً أنّ خدمة إظهار هوية المتّصل لم تعد مدفوعة كما في السابق. وبالنسبة لامرأة تبذل كلّ هذه الجهود لتبدو شابّة، من المدهش أنّها لم تتقن بعد مفهوم الهاتف الذكي.

«حسناً، كيف حالك؟».

كنت مستغرباً بعض الشيء. فمن عادتها أن تذهب مباشرة إلى صلب الموضوع عندما تتّصل. لابد أنّها على وشك أن تطلب منّي أمراً كبيراً.

«ماذا تريدين؟».

«ألا يمكن للأمّ الاتّصال بابنها لمجرّد سؤاله عن أحواله؟».

«بلى يمكن للأمّ أن تفعل ذلك، أمّا أنت، فلا يمكنك».

«أنت جاحد أحياناً».

«أعلم، ولكنّني لم أتغيّر منذ آخر مرّة رأينا فيها بعضنا البعض».

صدرت عنها تنهيدة عميقة ميلودرامية. هل تبتسم؟ ربّما كنت أتخيّل وحسب، ولكن لا يهمّ، فأنا أقبل بأيّ شيء يضيء نهاري.

«سيُمنح والدك تقديراً من المجتمع الطبّي».

«ياله من رجل».

«مكسيم...».

«حسناً، حسناً، ماذا تتوقّعين منّي، أخبريني بشكل ملموس. رسالة إلكترونية؟ اتّصال؟ أنا مستعدّ للتفاوض».

«بل حضورك».

ارتسمت على وجهي تكشيرة.

«أنت تطلبين الكثير».

«مكسيم، هذا والدك، وهو فخور جدّاً بنيله هذا التقدير».

«بالضبط، فلماذا نفسد هذا الحدث الجميل بإحضار شخص لا يفتخر به؟».

«والدك فخور بك».

«اسمعي، ألم أصبح كبيراً بما فيه الكفاية لنكفّ عن الكذب على بعضنا البعض؟ أما من سنّ محدّدة لذلك؟ فأنا أعتقد أنّ هذا يأتي بعد سنوات قليلة من انتهاء كذبة سانتا كلوز».

«أنت مخطئ بشأن أبيك، فهو لا يُظهر مشاعره، هذا كلّ ما في الأمر».

«أوه، لا تخبريني عن ذلك!».

«مكسيم!».

«حسناً، حسناً، أنا أستسلم. متى؟ وأين؟ وهل يمكنني الحضور بالسروال الرياضي؟».

«ليس هذا السبت، بل السبت التالي، في قصر فرونتوناك. وبالطبع، لا يمكنك المجيء بالسروال الرياضي، بل عليك ارتداء سترة، وربطة عنق، أعلم أنّك تبدو أنيقاً عندما تبذل مجهوداً. ورجاء، أحضِر كاميل معك».

فوجئت، وانزعجت أيضاً. ليس لأنّني لا أريد أن ترافقني كاميل، ولكن لأنّ ذلك يذكّرني بالوضع الحالي بيننا. فأنا أحاول عدم التفكير فيها كلّ ثلاثين ثانية...

«لماذا؟ أنت تعلمين أنّها ليست حبيبتي؟».

«نعم أعلم، ولكن سيبدو جيّداً وجود شابّة جميلة إلى جانبك. علاوة على ذلك، أنت تتصرّف بشكل أفضل عندما تكون في الجوار».

«هل تعنين أنّها تجعلني مملّاً؟».

«بل تحسّن طباعك».

«سأوصل لها الرسالة، وستفرح بذلك».

«إذاً، هل ستحضرها؟».

«سأدعوها. فكاميل، على عكس بعض النساء، تفعل ما تريد».

حلّ الصمت، وشعرتُ أنّني تماديت كثيراً. بصراحة، شعرت بالأسف على الرغم من أنّ الأوان فات على التراجع.

«لم يكن ذلك لطيفاً من جانبك».

«أعلم، أدركت بعدما قلته».

لم أعتذر. كان ينبغي أن أفعل، لكنّها طلبت منّي الكثير لهذا اليوم. وهذا أيضاً كانت تعلمه.

«حسناً... إذاً، سنكون بانتظاركما عند الساعة السادسة والنصف».

«سأحاول إقناعها».

«إلى اللقاء».

أغلقَت الخطّ، بينما تأوّهتُ وأنا أدفع غدائي بعيداً، بعد أن اختفى إحساسي بالجوع. حدّقتُ من النافذة بكآبة. كانت تمطر بغزارة في الخارج، ولديّ موعد آخر مع والدي في أقلّ من أسبوعين، وبالإضافة إلى ذلك، سيتعيّن عليّ إقناع كاميل بمرافقتي إلى هناك.

بالتأكيد، أنا أكره الحياة قليلاً هذه الأيّام.

كام

المرّة الثانية التي كادت أن تتطوّر فيها علاقتنا أنا وماكس كانت ثاني أيّام الميلاد الذي قضاه في منزلي في ألما. كان والداه قد ذهبا إلى جزر البهاما في ذلك العام (على ما أذكر). وأوضحت لماكس أنّني، لو كنت مكانه، لقبلت بتحمّل كثير من المضايقات، بما في ذلك والديه، لقاء فرصة اكتساب سمرة لبضعة أيّام في بقعة للأثرياء. غير أنّه أجاب قائلاً إنّ كلّ سمرة العالم لا تستحقّ عناء سماع والده يشتكي طوال الأسبوع من المستوى المتوسّط للبوفيه الفاخر وعدم ارتياحه في جناحهما الفخم الكبير في الفندق. بعد جدال لا طائل منه، دعوته إلى منزل أبي. سيكون أبي سعيداً، وكذلك سنكون أنا وماكس... أمّا بالنسبة إلى والديه، فلن يكونا سعيدين بالتأكيد، ولكنّها مشكلتهما.

كان أبي وماكس على علاقة طيّبة منذ الميلاد السابق، كما أصبحا صديقين على فايسبوك. وكنت أشاهد أحياناً مقاطع فيديو على صفحتي عن الصيد في أعماق البحار قاما بوسم بعضهما البعض عليها. لذلك لم تكن لديّ هذه المرّة أيّ مخاوف بشأن إحضار ماكس إلى منزلنا، بخلاف ربّما استثنائي من محادثاتهما حول أسماك المياه العذبة.

مرّت زيارته على خير ما يرام كما في العام السابق، لا بل وأفضل. فقد قام أبي بتعليم ماكس كيفيّة ركوب الزلّاجة، وفهمت وأنا أشاهدهما، أنّه في سنّ معيّنة، لا يعود سانتا كلوز هو الذي يوقظ جانب الطفل لدى الرجل، بل فرصة ركوب آلة سريعة تصدر صوت فروم فروم.

في اليوم الأخير قبل عودتنا إلى المدينة، هبّت عاصفة قويّة، من تلك العواصف التي تجعلنا نتساءل عمّا إذا كنا سنضطرّ لركوب الزلّاجة في صباح اليوم التالي للذهاب إلى المتجر. ثمّ انقطعت الكهرباء في وقت مبكر من المساء، وانتهى بنا الأمر بتناول الطعام على ضوء الشموع والشرب

حتّى احمرّت شفاهنا وخدودنا. ضحكتُ حتّى البكاء مع أبي وماكس في منزل طفولتي، وكان قد مرّ وقت طويل منذ أن شعرت بهذه السعادة. في ساعة متأخّرة من ذلك المساء، تركَنا والدي بمفردنا، وذهب مترنّحاً بعض الشيء إلى غرفته. كنت قد أعددت جلسة مريحة من الوسائد والبطّانيات على الأرض لي أنا وماكس، وجلسنا أمام المدفأة. في الخارج، كان الثلج يتساقط في حبّات ضخمة بينما كان الجوّ في الداخل حارّاً (وأنا لا أتحدّث هنا عن المنزل فقط).

تولّى ماكس إشعال النار واهتمّ بذلك بجدّية مثيرة للضحك.

علّقتُ ساخرة: «لن نموت من البرد على أيّ حال».

«أعتقد أنّه كان بإمكاني أن أعيش في الغابات».

«هل تدرك أنّه، في الغابة، لا يمكنك الوصول إلى الخشب الجافّ والصحف والمدفأة؟».

استخدم مجدّداً عصا النار لتحريك حطبة كبيرة وتثبيتها بالزاوية المناسبة، ثمّ عاد للجلوس بجواري على الوسائد.

قال لي: «أتعلمين أنّك متصلّبة؟».

اعتدلت في جلستي قليلاً على الوسائد.

«ماذا؟».

«لماذا تقاتلين بشدّة طوال الوقت؟».

أكره عندما يفعل ذلك، أي عندما يجيب على سؤالي بسؤال آخر. غير أنّه في تلك الليلة، فاجأني. إذ لم أكن أتوقّع هذا التحوّل الجادّ في المحادثة.

«ماذا تعني؟».

«أريد أن أعرف لماذا تحاولين دائماً أن تكوني قاسية إلى هذا الحدّ، فأنا أعلم أنّك أرقّ بكثير ممّا تتظاهرين به».

وضع إصبعاً في المكان الذي ينبض فيه قلبي بشدّة تحت سترتي وبشرتي، وضغط قليلاً.

اعترفت قائلة: «لا أدري».

كان بإمكاني أن أردّ بسخرية، وبنكتة أخرى، لكنّ طريقته في النظر إليّ سلبتني رغبتي في القتال.

«لا أعرف من أين أتى ذلك، لا أعرف حتّى ما إذا كنت دائماً على هذا النحو. أعتقد أنّ الأمر أصبح أسهل يوماً ما...».

«أسهل؟».

فتح ذراعيه، فارتميت على صدره. كان ذلك طبيعياً، تماماً مثل أن يترك المرء نفسه ينجرف مع التيّار بعد أن يكون قد حاول طويلاً السباحة بالاتّجاه المعاكس. شعرت بأصابعه تنزلق على عمودي الفقري. كان الأمر مثيراً للتوتّر بعض الشيء، لكنّني كنت مستعدّة للاستمرار بالحديث طوال الليل إذا كان ذلك يمنعه من التوقّف.

«أعتقد أنّني لشدّة ما تعرّضت للأذى بعد أن أبديت ضعفي، قرّرت لا شعورياً أنّه من الأسهل أن أكون قاسية. والأشخاص الوحيدون الذين سيرون جانبي الأكثر رقّة هم أولئك الذين أثبتوا أنفسهم، والذين قرّرت الوثوق بهم. لكنّ المشكلة أنّني أنسى أحياناً أنّه ثمّة أناس لا أحتاج إلى حماية نفسي منهم.

«نعم».

حاولت تخمين الأشكال التي ترسمها أصابعه على ظهر، ولكن عبثاً. فقد كانت مثل ماكس، غير متوقّعة ومتبّدلة. أغمضتُ عينيّ للحظة. كانت نار الموقد تعطّر الغرفة، وتختلط برائحة ماكس القريب منّي، بحيث تجعل رأسي يدور على نحو ممتع.

«إذاً؟ أعرفك أكثر فصاحة».

«كنت أتساءل ما إذا كنت تنسين حقّاً أنّك لست مضطرّة لحماية نفسك، أم أنّك تخشين أن يتخلّى الشخص عنك الذي تثقين به على الرغم من كلّ شيء».

بقيت عاجزة عن الكلام أمام وضوح كلماته، فتابع ببطء:

«أتعلمين يا كام، بعض الأشخاص لا يرحلون. أنا، مثلاً».

«من الجميل تصديق ذلك، ولكن من يعلم؟ فأمّي لم تخطّط للرحيل هي الأخرى».

تنهّد، وازداد ضغط أصابعه.

«نعم هذا مؤكّد. لكن ما دمت قادراً على ذلك، فلن أرحل».

«لماذا؟».

«لأنّ الأمر مختلف معك».

التفتُّ إليه، بحيث أصبحت رقبتي في وضعية غير مريحة، ولكنّني أردت رؤيته بشكل أفضل. أردت في تلك اللحظة أن أرى ردّ فعله بعد ما سأقوله.

«صحيح. أولم يكن الأمر كذلك دائماً؟».

نظر إلى عينيّ كمن ينظر إلى شيء ثمين. وحتّى لو بدوت سخيفة، لكن هذا ما شعرت به حقّاً.

«بلى».

عرفت أنّه سيعانقني. فالمرء يعرف ذلك دائماً قبل حدوثه، كما لو أنّ إشارة بيولوجية تحضّرنا لذلك. وأنا أتحدّث هنا عن العناق الذي يعني شيئاً، وليس عن ذاك العابر. أتحدّث عن العناق الذي طال انتظاره.

وبالنسبة إلينا، فقد حان الوقت، لا بل منذ زمن.

كانت تلك أيضاً اللحظة التي اختارت فيها الكهرباء العودة في وميض كبير من الضوء الساطع دمّر اللحظة تماماً. ضحكنا، لأنّ الوضع كان مضحكاً، ولم نعانق بعضنا. أمّا الجسد، فكان مستعدّاً، وكذلك كانت الروح.

ماكس

منذ عام تقريباً، بعد فترة وجيزة من الميلاد، كنت على وشك اتّخاذ خطوة إلى الأمام مع كام. وأعني هنا خطوة حقيقية وجريئة، إلى أن تدرك أنّ هذا ما تريده هي أيضاً. أعلم أنّ الأمر يبدو وكأنّني أفرض نفسي عليها، ولكنّه ليس كذلك في الواقع. فقد شعرت أنّني إذا تجرّأت أخيراً، وضغطتُ قليلاً وحسب، فسوف تستسلم. أنا أعلم أنّها تريد الشيء نفسه، لكنّ المبادرة يجب أن تأتي منّي، وأنا لم أواجه يوماً مشكلة في المبادرة مع الفتيات. بدأتُ أيضاً برؤية نمط يظهر. فمع أنّني أنا من يبادر مع الفتيات اللواتي أواعدهنّ، إلّا أنّ الأمر ينتهي بي دائماً بفقدان الاهتمام بهنّ. كانت فلورانس استثناءً، ومعها أيضاً، لم أكرّس نفسي تماماً لتلك العلاقة. أمّا مع كام، فأنا على أرض غير مألوفة، ولذلك أنتظر اللحظة المناسبة، وأنتظر أن أكون متأكّداً، وأنتظر... في الواقع، لا أذكر بالضبط ما أنتظره، باستثناء أنّني سئمت الانتظار.

في الليلة التي كدت أن أقوم فيها بخطوتي، كان يوم الجمعة، وكنّا في مقهى جديد مع ماتيو، أحد أصدقائنا، وحبيبته كاترين. كانت كام جالسة أمامي، وماتيو إلى جانبها، وكاترين بجانبي، وكنّا نتناول كأسنا الثاني. رحنا نتجاذب أطراف الحديث في جوّ هادئ ونحن نضحك. وكنت أنظر إلى كام كثيراً وأنا أشعر بالثقة والاستعداد للتحرّك. خطّطت لمرافقتها إلى المنزل، ومن ثمّ إيجاد اللحظة المناسبة لأكشف لعبتي. فقط لو عرفْتُ!

حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة. كان مات يروي قصّة، شيئاً دراميّاً، لأنّ أحاديث مات درامية دائماً، عندما قاطعَته كاترين بتعجّب.

«زافييه!».

التفتنا جميعاً في وقت واحد نحو رجل أسمر طويل القامة دخل المقهى للتوّ. بحث عن مصدر الصوت وأشرق وجهه عندما رأى كاترين. فاقترب من طاولتنا، وصافح مات، ثمّ قبّل كاترين. أمّا أنا وكام فحيّانا بإيماءة ودودة. سرعان ما عرفنا أنّه شقيق كاترين، وأنّها دعته للانضمام إلينا هذا المساء. فسحب كرسيّاً وجلس على طرف الطاولة. شغل مساحة كبيرة، ليس بصوته، بل بحضوره. فقد كان طويلاً، أطول منّي، مع أنّه لم يكن عريض الكتفين بقدري. قصّة شعره ونظّارته على طراز الهيبستر، مع فكّ مربّع، وبشرة شاحبة، وعينين داكنتين. كان يحدّق إلى كام بقوّة. دائماً ما يحدّق الرجال إلى كام بقوّة، وقد اعتدت على ذلك، لكنّ الجديد أنّها راحت تحدّق إليه هي أيضاً بالطريقة نفسها. سرعان ما أدركت ذلك، وشعرت بتشنّج في معدتي.

كلّما تقدّمت الأمسية، تعاظم إحساسي أنّني متطفّل على تلك الطاولة، بين ثنائي موجود أساساً وثنائي في طور النشوء. وكلّما ضحكت كام بصوت عالٍ ووضعت يدها على ذراع زافييه، شعرت بالحمض يرتفع في حلقي. أنهيت شرابي وانسحبت قبل أن يبدو انزعاجي واضحاً، وكذلك قبل أن أتفوّه بتعليق غير مناسب حول السروال الضيّق للغاية الذي يرتديه الوافد الجديد.

في صباح اليوم التالي تلقّيت رسالة من كام. لم أكن متحمّساً، لا سيّما وأنّ الرسالة كانت عبارة عن كلمة واحدة، «إفطار؟»، ممّا يشير إلى أنّها لم تُمض الليلة مع زافييه. أدركتُ أيضاً أنّني لم أهدأ تماماً بعد، لأنّني نظرت إلى الأعلى باستياء عندما فكّرت في زافييه.

التقينا في مطعمنا المعتاد. جلست كام على المقعد أمامي، وبدا لي أنّ عينيها الزرقاوين الكبيرتين المحاطتين بهالات سوداء تلمعان ببريق جديد. وكان قد مرّ وقت طويل منذ أن رأيت هذا التألّق في عينيها.

«يبدو أنّ أحدهم تناول حبّة سعادة هذا الصباح».

احمرّت خجلاً، فأضفت: «يبدو أنّك نمت ثلاث ساعات».

«وربّما أقلّ».

شعرت بقلبي يتوقّف عن الخفقان، ولكنّني تمكّنت من الحفاظ على نبرة هادئة: «يا لك من فتاة قليلة الأدب».

«أيّها الغبيّ، نحن لم نبقَ معاً!».

«ماذا فعلتما إذاً؟».

«تجاذبنا أطراف الحديث، وكان ذلك ممتعاً. أتعلم، بالنسبة إلى البعض منّا، ثمّة أمور أخرى مهمّة في الحياة».

ابتسمتُ، ولكنّ طعم ابتسامتي كان مرّاً.

«من الطريقة التي كان ينظر بها إليك هذا الرجل الليلة الماضية، يمكنني أن أؤكّد لك أنّه لم يكن يسعى إلى الدردشة وحسب».

«ربّما، ولكن هذا كلّ ما فعلناه».

«أنت مملّة».

«أعرف».

أضفتُ بعد شيء من الصمت:

«لمعلوماتك، ليس هذا كلّ ما يهمّني أنا أيضاً».

«ماذا تعني؟».

«ثمّة أمور أخرى في الحياة مهمّة برأيي».

«ماذا تقصد؟».

«لا شيء، انسي الأمر».

«ولكن».

«ولكن، لا شيء. كنت أثرثر وحسب، أنت تعلمين أنّني أقول أيّ شيء أحياناً».

«صحيح...».

زمّت عينيها، ولم يبدُ عليها الاقتناع. قلت لتغيير الموضوع: «حدّثيني إذاً عن صديقك الجديد صاحب السروال الضيّق».

ضحكت مجيبة:

«بالتأكيد، كنت واثقة من أنّك ستدلي بتعليق سيّئ عنه! كان ذلك سريعاً هذه المرّة».

«ماذا تعنين؟».

«كلّما قابلتُ شخصاً ما، تكيل له الانتقادات. مارك أنطوان، شعره رمادي جدّاً، وإتيان جسمه مترهّل، أمّا يان، حسناً يان...».

«بالنسبة إلى يان، كنت محقّاً تماماً».

«نعم، نعم، كنتَ محقّاً، ولكنّك تفهم قصدي...».

«نعم، ولكنّني أفعل الشيء نفسه مع الفتيات اللواتي أخرج معهنّ. فماذا تتوقّعين؟».

أحضرت لنا النادلة أطباقنا. لم نعد حتّى بحاجة إلى الطلب لكثرة ما نتردّد على هذا المكان. دفعت كام البطاطس إلى طرف طبقها قبل أن تصبّ عليها الصلصلة وتعطيني الوعاء. تلامست أصابعنا على مقبض الزجاجة، وشعرت بصدمة الاحتكاك وصولاً إلى بطني، فتساءلت ما إذا كانت قد شعرت بذلك هي الأخرى.

«أنت على حقّ، من الواضح أنّ معاييري أقلّ صعوبة من معاييرك».

«ربّما يجب أن تكون كذلك».

«وإلاّ لأمضيتُ حياتي وحيدة».

«حسناً كلّا، أنا أعرف شخصاً يناسبك».

أمالت رأسها جانباً بشيء من الحيرة، وراح قلبي ينبض بقوّة بين ضلوعي. هل كانت تسمعه؟

«حقّاً؟ ومن يكون؟».

«أنا».

انفرجت شفتاها وتردّدت في الإجابة، ثمّ هزّت رأسها قائلة: «كلانا يعرف أنّك لست جادّاً».

«هل نعرف حقّاً؟».

«ماكس...».

«ماذا؟».

«أنت تفعل ذلك دائماً».

«ماذا أفعل؟».

«لديّ موعد مع زافييه، دعني أستمتع بذلك من فضلك. فهو لطيف، وأعتقد أنّ الأمر قد ينجح معه. نحن نعلم جيّداً أنّك تصبح عدوانياً عندما أكون على موعد مع أحدهم، وأنّك لا تعني حقّاً ما تقوله».

«لم يكن الحال كذلك دائماً».

«نعم، أعرف، ولكن كان هذا منذ وقت طويل. أنا أعرفك الآن».

«والآن بعدما أصبحت تعرفينني، ألا تجدينني قابلاً للمواعدة؟».

«بل على العكس، أنت قابل جدّاً للمواعدة، لكنّك غير قادر على النظر في اتّجاه واحد».

«أنا أميل إلى التقلّب، أنت محقّة».

ابتسمَت، وبدت حزينة بعض الشيء. تناولتُ رشفة من القهوة. كانت حارقة، ولكنّني أخذت رشفة أخرى مع ذلك. كان بإمكاني إخبارها أنّني فكّرت في القيام بخطوة تجاهها قبل أن تلتقي بزافييه، وأنّ زافييه لا علاقة له بالمسألة. لكن مرّ وقت طويل منذ أن رأيت هذا التعبير على وجه كاميل، شيء يشبه السعادة. شاهدتها تأكل البيض، وهي تبتسم بشرود، وفكّرت أنّه ربّما لم يكن

دوري أن أقدّم لها هذا النوع من الابتسامات العابرة، التي تنتهي دائماً بالتلاشي، شأنها شأن الابتسامات العديدة التي جعلتُها تولد وتموت على وجوه الفتيات اللواتي عرفتهنّ في حياتي. لا أريد ذلك لنا أنا وكام. فأنا أجعلها تبتسم كلّ يوم منذ مدّة طويلة، ربّما ليس بالطريقة التي أريدها، ولكن ربّما يجدر بي ولو لمرّة واحدة أن أفكّر فيها قبل التفكير في نفسي.

بعد بضعة أشهر، أدرك زافييه أنّه ليس مستعدّاً للالتزام، كان هذا الوضع الكلاسيكي للرجل الذي حصل على ما يريد وفضّل الهرب عندما أصبحت الأمور جادّة. عادت كام إلى المربّع الأوّل، وكنت موجوداً لإصلاح الأضرار مرّة أخرى. فأدركتُ أنّني كنت محقّاً في التزامي بدور الصديق. لو كنت أنا الذي حطّمها، فمن سيساعدها على التعافي هذه المرّة؟

كام

بعد نحو ستّة أشهر من انفصالي عن فيكتور، دخلت فلورانس المقهى الذي كنت أعمل فيه. كانت محض صدفة. كان طابور الزبائن طويلاً جدّاً، وكانت منشغلة على هاتفها، لذلك تسنّى لي الوقت لرؤيتها قادمة، ولأعدّ نفسي. أمّا هي، فلم يتسنَّ لها الوقت الكافي. نظرَت إلى القائمة فوق رأسي عندما أصبحت أمامي، وتوقّف نظرها عليّ عندما عرفتني. رأيت عديداً من المشاعر تعبر وجهها، ولم يكن أيّ منها إيجابياً. شدّت على شفتيها، تماماً كما يحبّ ماكس أن يفعل عندما يقلّدها، فانتابتني رغبة في الضحك عندما فكّرت في الأمر، ولكنّ الوقت لم يكن مناسباً حقّاً.

لحسن الحظّ، مع استمرار توافد الزبائن خلفها، طلبَت بسرعة، متظاهرة أنّها لم تعرفني. ظننتُ أنّها ستأخذ قهوتها وتغادر على الفور، ولكن لا، إذ من الواضح أنّها جاءت بنيّة الدراسة، والدليل الحقيبة التي كانت تحملها على ظهرها، وبالطبع، لن يدفعها وجودي إلى مغادرة المكان. لم يسعني إلّا أن أحيّي فيها شجاعتها. فلو كنت مكانها، سواء أتيت للدراسة أم لا، لاستدرت على عقبيّ ورحلت على الفور.

بذلت قصارى جهدي لتجنّبها طوال فترة ما بعد الظهيرة، لكنّ الزبائن لم يحافظوا على نظافة الطاولات في ذلك النهار، واضطررت في نهاية المطاف الذهاب لتنظيف الطاولات التي تكدّست عليها المناديل الورقية والأكواب وبقايا المافن وما إلى ذلك. فرغ المقهى تدريجياً من روّاده. وكنت قد أبقيت الطاولات المجاورة لها للنهاية، على أمل أن تغادر قبل وصولي إليها. ولكن بما أنّها لم تتحرّك من مكانها، اضطررت للذهاب والعمل بجانبها، وتمنّيت من كلّ قلبي أن تستمرّ في تجاهلي. كنت أركّز أكثر من اللازم على حركة يدي وأنا أمسح الطاولة، عندما قالت من خلفي:

«لقد التقيتُ بفيكتور في المتجر قبل بضعة أسابيع».

يا لها من طريقة للمبادرة بالحديث، كان بإمكانها إلقاء التحيّة ببساطة، لكن يبدو أنّها قرّرت عدم الاهتمام بالشكليّات. لم يعد لديّ الخيار. فاستدرت إليها ببطء، حاملة وعاء الأطباق المتّسخة تحت ذراعي، وأنا أشعر بالتوتّر في معدتي.

«حقّاً؟ وكيف حاله؟».

«مؤسف».

«آه».

من الواضح أنّ هذا الحديث يمكن مقارنته بالصلع، الذي لا يتحسّن بمرور الوقت.

«آه؟ أهذا كلّ ما أمكنك قوله؟».

«وماذا تتوقّعين بالضبط يا فلورانس؟».

نظرت إلى عينيّ مباشرة للمرّة الأولى، وأدهشني جمالها مجدّداً. لطالما ولّد جمال فلورانس بداخلي إحساساً بانعدام الأمان لا يمكن سوى للنساء الجميلات أن يتسبّبن به. لون عينيها الذهبي، وسواد شعرها، وصفاء بشرتها البيضاء كما لو أنّها معدّلة بالفوتوشوب... كان كلّ ذلك من الأمور التي تعلّمتُ التعامل معها مع الزمن. ولا أقصد جمال فلورانس فحسب، بل ميل ماكس إلى مواعدة نساء رائعات الجمال، وميلهنّ هنّ أيضاً للوقوع في حبّه في المقابل.

لكن في ذلك اليوم، كانت فلورانس مختلفة. لم تكن أقلّ جمالاً، بل على العكس، ولكنّها كانت أكثر حزناً ربّما، وأقلّ ثقة بنفسها.

نظرَت إلى الأسفل أخيراً، ثمّ تنهّدَت قائلة: «آه، أعلم جيّداً».

تلاشى التوتّر بيننا قليلاً.

«تعلمين جيّداً».

«نعم». (قالت ذلك بلكنة لا تشبه تماماً لكنة أهالي كيبيك). «أعلم جيّداً أنّك لا تستطيعين الإجابة بشيء على ذلك. أعلم أيضاً أنّ ما حدث بيننا أنا وماكس ليس ذنبك».

«أوه؟».

بدأتُ ألاحظ أنا نفسي أنّني سخيفة بإجاباتي، ولكنّها لم تعلّق على افتقاري إلى المفردات.

«أنت لم تساعدي، هذا مؤكّد، لكنّني لاحظت على الفور أنّه يجدك ملائمة لذوقه وأنّه ليس من نوع الشبّان الذين يمكن الوثوق بهم حقّاً، ولذلك كان عليّ أنا أن أكون أكثر حذراً».

أجفلتُ قليلاً.

«أنت تعلمين أنّه لم يحدث شيء بيننا يوماً، أليس كذلك؟».

كرّرَت وهي ترسم علامات اقتباس بأصابعها «لم يحدث شيء».

«لا، لا، لم يحدث شيء حقّاً».

«إن كان صديقي مغرماً بفتاة أخرى، لا يمكن ألّا أعتبر ذلك شيئاً، أليس كذلك؟».

«ماكس ليس مغرماً بي».

«استمِرّا في الكذب على أنفسكما ما طاب لكما ذلك، فأنا لم أعد أهتمّ بعد الآن. هذا الأمر لم يعد يعنيني. وفي النهاية، إذا لم يكن قد خانني معك، فقد خانني مع أخرى».

شعرتُ بالدهشة تُرسَم على وجهي من دون أن أتمكّن من إخفائها. فبدت وكأنّها تستعيد رباطة جأشها، كما عاد شيء من الثقة إلى عينيها الذهبيتين.

«آه، أنت لا تعرفين إذاً؟».

«ماذا؟».

تنهّدَت مجدّداً، وبدأت بتوضيب كتبها.

«كما تعلمين يا كاميل، لن يكون ماكس يوماً رجلاً لامرأة واحدة، أنا أقول ذلك لمصلحتك».

أخيراً، نهضت وحملت حقيبتها. لم أعرف ماذا أقول، فقد شعرت بالعجز التامّ، وأنا واقفة هناك، حاملة وعاء الأطباق المتّسخة بين ذراعيّ، ونظرة شرود تعلو وجهي. في النهاية، استدرتُ على عقبيّ.

«مهلاً يا كاميل».

توقّفتُ، ثمّ تنهّدت والتفتُّ إليها.

«ماذا؟».

«انسي الأمر».

«ماذا أنسى؟».

«ما قلتُه للتوّ. صحيح أنّ ماكس يحبّ النساء، وهذا أمر تعرفينه، لكنّ وضعنا أنا وأنت مختلف».

«بصراحة، أنا لا أفهم شيئاً ممّا تقولينه يا فلورانس».

«ماكس لم يكن يحبّني».

بقيتُ عاجزة عن الكلام هذه المرّة أيضاً، إذ يبدو أنّه يوم كشف الأسرار. غير أنّني لم أرَ على وجهها النقيّ أيّ أثر للحزن، الأمر الذي أحزنني أكثر.

«اسمعي، لقد بقيتما معاً لمدّة عام».

«وماذا إذاً؟ هل تعتقدين أنّ الوقت يغيّر شيئاً؟».

«...نعم».

«وكم بقيتما معاً أنت وفيكتور؟».

«... ما يزيد عن عام بقليل».

«وهل أحببته طوال هذا الوقت؟».

لم أجد شيئاً لأضيفه، بينما ارتسمت ابتسامة استسلام صغيرة على وجهها. وددت لو أخبرها أنّني آسفة، وأنّها تستحقّ أفضل من ذلك بكثير، تستحقّ رجلاً يحبّها حقّاً، لكنّني لم أستطع قول شيء.

«أتعلمين... لطالما ظننت أنّه سيكون من الرائع حقّاً أن يحبّني ماكس، أن يحبّني حقّاً. حاولت فعل كلّ شيء لتحقيق ذلك، ولكنّني فشلت. ربّما يكون الأمر مختلفاً معك».

نظرت إليها، بشعرها الناعم، وعينيها الكبيرتين اللطيفتين، ونظراتها الواثقة. كان من الصعب تخيّل رجل لا يمكنه الوقوع في حبّها، ولكن بدا لي من المنطقي أن يكون ماكس ذلك الرجل. فهو لم يفعل قطّ ما توقّعه الناس منه، ولن يختلف الأمر مع الحبّ. أجبت أخيراً:

«لا أعتقد».

هزّت فلورانس كتفيها قائلة:

«سيكون ذلك مؤسفاً. لم يكن ماكس الرجل المناسب لي، ولكنّني لا أعتقد أنّه شخص سيّئ».

قالت ذلك، ثمّ رحلَت، ولم أرها منذ ذلك الحين.

ماكس

تعتبر جانيت، جدّتي لأبي، استثناء في عائلتي الباردة والمفكّكة. فقد كانت امرأة مضحكة وساخرة ومليئة بالحياة. لم تكن تكترث لأحد، وتضحك عندما يضايق كلامها الآخرين أو عندما ينزعج أبي كلّما تفوّهت بألفاظ نابية في عشاء عائلي في مطعم باهظ التكلفة. كانت تحبّ استفزاز الناس.

اعتدت على زيارة جدّتي كلّ أسبوع. كما كنّا نتحدّث عبر الهاتف كلّ يوم تقريباً، ولو لبضع دقائق فقط. فتطلعني على مستجدّات مسلسلاتها التلفزيونية، وأخبرها عن الفتيات اللواتي أواعدهنّ. وكان ذلك يضحكها. كانت تقول إنّني أسلّيها أكثر من شخصيّات مسلسلها المفضّل مجتمعين. فأمازحها قائلاً إنّني أكثر وسامة منهم أيضاً. لطالما قالت لي إنّني سألتقي يوماً ما بامرأة تعيد إلى عقلي الجميل الساذج شيئاً من المنطق. فأجيبها ضاحكاً أنّ هذا ما تقوم به أساساً هي نفسها على أفضل وجه.

في أحد الأيّام، وبينما كنّا نتحدّث عن أبي الذي ينزعج من ملاحظاتها الساخرة، أخبرتني أنّها لم تكن دائماً على هذا النحو، وأنّها كانت في شبابها مثل أمّي، امرأة هادئة، ومتحفّظة، تجيد التحكّم بأعصابها. لكن عندما توفّي جدّي، رأت أنّها سئمت من ضبط نفسها باستمرار لكي لا تسيء لأحد. وفهمَت أنّه، في جميع الأحوال، لن تتمكّن يوماً من إرضاء الجميع.

سألتها ذات يوم لماذا بقيت متزوّجة من رجل لا يمنحها حرّية التعبير عن نفسها. فشرحَت لي أنّه على الرغم من شجاعتها، إلّا أنّ بعض الأمور كانت مستحيلة في زمانها. سألتها أيضاً لماذا

قبلت والدتي بوضعها. كنت في الثامنة عشرة من عمري في ذلك الوقت، وفي هذه السنّ، يشعر المرء أنّه كبير بما فيه الكفاية لتحمّل معرفة الحقيقة، ولكنّه يخشى سماعها قليلاً. فتنهّدَت مجيبة:

«والدتك ليست تعيسة يا مكسيم، ليس بقدر ما كنتُ أنا على الأقلّ».

«لكنّها ليست سعيدة أيضاً».

أخذَت رشفة طويلة من الشاي، ثمّ أعادت تسوية بعض الخصل المجعّدة قبل أن تتابع:

«لا يبحث الجميع عن السعادة بالطريقة التي تبحث عنها أنت. بالنسبة إلى معظم الناس، تعتبر مواكبة المظاهر أكثر من كافية».

«هذا محزن».

«هكذا هي الحياة».

كثيراً ما كانت جدّتي تستعمل هذه العبارة لتنهي محادثاتها ببراعة.

توفّيت بعد بلوغي الثالثة والعشرين بقليل، نتيجة احتشاء في عضلة القلب. «أزمة قلبية» كما أوضح والدي على الطرف الآخر من الخطّ، ظنّاً منه أنّني لم أفهم. كنت قد فهمت، لكنّ الهواء في رئتيّ لم يسعفني لأتفوّه بأيّ كلمة على الإطلاق. أخبرني بذلك بين معاينتين، وكنت في الحافلة في طريقي إلى الجامعة. نزلت في المحطّة الأولى، وهِمت في الشوارع على غير هدى. تساءلت ما إذا كان والدي قد بكى، وحاولت ان أتخيّله، غير أنّني لم أستطع.

ساقتني قدماي إلى السهول. فأرسلت رسالة نصّية إلى كام، التي ما لبثت أن لحقت بي. فوّتت صفّاً دراسياً من أجل ذلك، ولم يكن هذا من عادتها. كنّا في فصل الربيع، وكان العشب مبلّلاً قليلاً تحت سروالي الجينز. لكنّني لم أهتمّ، وبالكاد شعرت بالرياح الباردة تلفحني بقوّة، كما هو الحال دائماً بالقرب من النهر. كانت جدتي تحبّ المشي في السهول كثيراً، وأعتقد أنّ هذا أحد أسباب وصولي إلى هنا، من دون أن أدرك حقاً.

جلست كام بجواري على العشب الرطب، من دون أن تسألني ما إذا كنت بخير، وقد قدّرت لها ذلك.

«أتعلمين ما هو الأسوأ؟».

لم تجبني، بل انتظرت لن أتابع.

«أشعر أنّني لن أتمكّن من الاعتياد على عدم رؤيتها بعد الآن. أعني... تلك المرأة كانت في حياتي دائماً. كانت الوحيدة في عائلتي التي أشعر بالراحة معها، والوحيدة التي قبلتني كما أنا. والآن، لا أتخيّل الحياة من دونها. أتمنّى لو كان باستطاعتي الاتّصال بها الآن، فقط لمجرّد سماع صوتها. لا أدري كيف سأعتاد على فكرة رحيلها».

كانت كام قد اقتلعت قبضة من الأعشاب المبلّلة وراحت تدحرجها بين كفّيها وهي تصغي إليّ. فتحت يديها، فشاهدت الرياح تنفخ العشب بعيداً.

«أنت تعتقد أنّك لن تخرج من هذه المحنة، لكنّ هذا سيحدث».

كان بإمكاني أن أعاند، ولكنّ نبرة صوتها أسكتتني. نظرت إليها، فوجدتها تحدّق إلى البعيد إلى نقطة فوق النهر، شيء لا يمكنني رؤيته. تابعت قائلة:

«في البداية، ستشعر كأنّك في حالة ذهول. لن يكون الأمر سيئاً للغاية، بل ستكون مخدّراً بعض الشيء. ستدفع ألمك إلى أعماقك لتتجاوز الجنازة من دون أن تنهار. ستعتقد أنّك بخير، وستشعر بالفخر لأنّك لم تبكِ عندما أتى جميع الناس لإخبارك بمدى أسفهم. ستشعر بالفخر لأنّك لم تغضب أيضاً. فالجنازات محبطة، ببطئها وجميع الكلمات الخرقاء التي ستسمعها... وسيستمرّ ذلك لفترة. الخدر، والإنكار. بعد ذلك، في يوم من الأيّام، سيأتي عنصر محرّك، وعندها ستخرج جميع المشاعر المدفونة بداخلك فجأة. لا أعرف ما سيكون ذلك العنصر بالنسبة إليك، ولكن بالنسبة إليّ كانت رائحة السباغيتي، أمر بهذه السخافة. وهنا يا ماكس، ستشعر بكلّ شيء. هنا...».

وضعت يدها على بطنها، وشدّت قبضتها.

«سيكون ذلك مؤلماً، كما لو أنّ أحدهم يقتلع أحشاءك تاركاً قشرة فارغة. أودّ لو أستطيع القول إنّ ذلك لن يؤلمك، ولكن أظنّ أنّه من الأفضل أن تعرف ما ينتظرك. فقد وددت لو عرفتُ ما الذي كان ينتظرني... وأنّني لم أخرج بعد من الغابة، كما ظننت».

صمتت، ثمّ اقتلعت مزيداً من الحشائش واستأنفت لفّها بين أصابعها، كما لو كانت نشاطاً علاجياً. فقلّدتها، من دون أن أعرف ما إذا كان ذلك مفيداً، غير أنّه لم يكن مضرّاً.

«وماذا بعد ذلك؟».

«بعد ذلك، ستهبط نوعاً ما عن الهضبة. سيكون الألم أقلّ حدّة، أقرب إلى ألم أسنان منه إلى طعنة خنجر. وهو شعور مؤلم، ولكن يمكن احتماله. ويوماً ما، ستدرك أنّ وقتاً طويلاً قد مرّ من دون أن تفكّر فيها وأنّك عندما تفكّر فيها، لا تتألّم كثيراً. أتعلم... فقدان شخص ما يشبه خسارة طرف من الأطراف. إذ لا يكون لدى المرء خيار آخر سوى تعلّم العيش من دون الطرف المفقود».

نظرت إليّ وابتسمَت ابتسامة صغيرة، لكنّها مليئة بالعذوبة. عندها أدركتُ كم أصبحنا مقرّبَين، أنا وهي. كنّا نذهب لتناول شراب معاً من حين إلى آخر، ونتحدّث عن تطلّعاتنا وأحلامنا. لكن في ذلك اليوم، أظهرَت لي جانباً جديداً منها، هو الأكثر ضعفاً، والذي يعرّفها حقّاً أيضاً. لم أكن أعرف كام منذ فترة طويلة في ذلك الوقت، بالكاد منذ عام، ولكن في تلك اللحظة بالذات، عرفت أنّني سأكون دائماً موجوداً من أجلها، وهي موجودة من أجلي.

سألتها:

«من كان بالنسبة إليك؟».

تردّدَت قليلاً وحسب، ثمّ ظهرت واحدة من تلك الابتسامات النصفية التي بدأت أعتاد عليها.

«أمّي».

كانت تلك المرّة الأولى من المرّات القليلة جدّاً التي تحدّثنا فيها عن والدتها.

كام

كنت جالسة في سيّارة الأجرة بجانب ماكس، في طريقنا إلى قصر فرونتوناك لحضور الأمسية الشهيرة المقامة تكريماً لوالده، وكنت لا أزال أتساءل عن المأزق الذي ورّطت نفسي فيه بقبول دعوته. أعلم أنّ ماكس يجيد الإقناع، ولكنّني شعرت حقّاً أنّني وقعت في الفخّ. كنت قد حشرت نفسي في ثوب بالكاد يسمح لي بالتنفّس بما فيه الكفاية لكي لا أفقد الوعي، كما أنّه سيحدّ من كمّية الطعام التي يمكنني ابتلاعها. كان الثوب مزوّداً أيضاً بفتحة أمامية من الواضح أنّها لن تسمح لي بالإكثار من الشراب أمام جميع الناس الأكثر نفوذاً في المدينة إذا كنت راغبة في الحفاظ على قدر أدنى من عزّة النفس.

قلت لماكس للمرّة الألف: «حقّاً، لا أعرف كيف أقنعتني».

أجابني للمرّة الألف هو الآخر: «بصراحة، أنا أيضاً لا أعرف».

راقبته من زاوية عيني، كما كان يفعل معي منذ فترة. كان يرتدي سروالاً رمادياً، وقميصاً كحلياً بنقوش مرساة، وربطة عنق حمراء من دون سترة، ربّما لأنّ والدته طلبت منه ارتداء واحدة. يذوب قلبي عندما أراه بملابس كهذه. ومن تعبير وجهه عندما ينظر إليّ، أعتقد أنّ تأثيري عليه مشابه. أشعر بأنّني خفيفة على نحو غريب عندما ينظر إليّ، كما لو أنّ صدري يمتلئ بالهيليوم. وإذا استمرّ الأمر على هذا النحو، فسيضطرّ إلى الإمساك بي عندما أخرج من التاكسي لكي لا أطير بعيداً.

أمرت قلبي سرّاً باستعادة وتيرته المعتادة، خشية أن يسمعه ماكس وهو ينبض بجنون بين أضلاعي. علاوة على ذلك، إذا استمرّ اضطرابي على هذا النحو، فإنّ تنفّسي سيتسارع، وسنواجه مشكلة مع الثوب.

على الرغم من كل حججي المقنعة، إلّا أنّ قلبي، الذي لا يقلّ عنّي عناداً، لم يصغ إليّ بالطبع.

قال ماكس ونحن نمرّ عبر باب سان جان: «سنرسل الفاتورة إلى أبي».

«الفاتورة؟».

«فاتورة الثوب».

أجبته بلا اكتراث: «أوه، هذا الشيء القديم؟ أنا أنام به».

ضحك قائلاً: «لطالما عرفت أنّك تعانين من عقدة الأناقة. على أيّ حال، أنا أشعر بالإطراء».

«لماذا؟».

رمقني من رأسي إلى أخمص قدميّ من دون أيّ إحراج. فشعرت أنّني أحمرّ خجلاً، وأملت أن أكون قد استخدمت ما فيه الكفاية من مساحيق التجميل لإخفاء ذلك. في الوقت نفسه، بدا لي هذه الليلة أنّه لا يزعجني كثيراً أن يراني أحمرّ خجلاً، لا بدّ أنّه تأثير الثوب أو نقص الأكسجين في دماغي.

«ربّما لم أنل نصيباً من قميص الموعد الأوّل، لكن كان لي نصيب في هذا الثوب».

«نعم، وهذا ليس موعدنا الأوّل أيضاً».

«لكن بإمكانه أن يكون».

نظر مباشرة إلى عينيّ، ولم أجب بشيء. شعرت أنّه يمسك بأحشائي في يده. قد يبدو تعبيري مقزّزاً بعض الشيء، ولكنّه ليس إحساساً مزعجاً، بل مثيراً للاضطراب بعض الشيء، وكأنّه يتحكّم

بي بالكامل.

توقّفت سيّارة الأجرة في الفناء الداخلي لقصر فرونتوناك. فترجّل ماكس وأسرع بالالتفاف حول السيّارة للمجيء إلى جانبي. كانت تمطر قليلاً، ولكن بخفّة، فكاد يتزحلق ليفتح لي الباب. ضحكت، ثمّ أمسكت بيده للنزول، وتركت كفّه الكبيرة تبتلع يدي. كانت يده رطبة قليلاً، وكذلك يدي. من الواضح أنّنا كنّا متوتّرَين كلانا، وليس حشد الأطبّاء والمحامين وكتّاب العدل وغيرهم من الأشخاص النافذين الذين يتوافدون من كلّ مكان إلى القصر هو الذي سبّب هذا الأثر.

ماكس

كانت الأمسية تسير على خير ما يرام، الأمر الذي يدعو إلى الدهشة. جلسنا أنا وكام إلى طاولة كبيرة، مع والديّ وعدد من كبار الشخصيات الأثرياء برفقة زوجاتهنّ الوقورات.

اتّسم والدي بقدر كبير من اللطف، وكان بالكاد أكثر غطرسة من عادته. كان الطعام لذيذاً، وكاميل مشرقة كالشمس بفستانها الأنيق، ووالدتي سعيدة. سارت الأمور على ما يرام إذاً، الأمر الذي لم أشأ ذكره بصوت عالٍ ولا حتّى التفكير فيه كثيراً لئلّا ينكسر السحر. بدأنا بتناول الحلوى، ولكن بالكاد لمست كام طبقها. فانحنيت وتمتمت في أذنها:

«بعد ذهابنا، سأفكّ سحّاب فستانك وسنأكل وجبة كبيرة، أعدك».

أضاءت عيناها كعينيّ فتاة تتضوّر جوعاً وتتوق إلى الطعام.

«هل أنت جادّ؟ اطلب ما تشاء».

«تماسكي، رجاءً».

«ماكس...».

«أنا أمزح، تعرفين ذلك».

غمزتُها، بينما نظرَت إلى الأعلى بانزعاج، وابتسمت رغماً عنها. في الماضي، كان هذا النوع من التعليقات يمرّ بسلاسة، أمّا الآن، فقد اختلفت الأمور بيننا.

سألتها امرأة خمسينية قدّمتها والدتي على أنّها زوجة أحد أعضاء مجلس البلدية: «وأنت يا كاميل، ماذا تعملين؟».

«ما زلت أدرس».

«آه حقّاً، وفي أيّ مجال؟».

«أنا أنهي درجة الماجستير في التربية النفسية».

«هذا جيّد. وبعد ذلك، هل ستبحثين عن وظيفة؟».

«كلّا في الواقع، بل سأبدأ الدكتوراه في الخريف المقبل. فقد حصلت على منحة دراسية».

«أوه! هذا رائع».

«بالتأكيد».

أتساءل ما إذا كانت السيّدة قد لاحظت السخرية في ابتسامة كام. على أيّ حال، من الواضح أنّها بدت أكثر إعجاباً بها بعد أن عرفت أنّها ستصبح دكتورة في مجال ما، فقد بدا الاحترام في نظرتها. كم أكره هذه البيئة التي تحدّد فيها الألقاب قيمة الناس.

نظرَت أمّي إلى كام بفخر وتبادلت نظرة مع أبي. إنّها نظرة التخطيط التي أعرفها جيّداً، لأنّني رأيتها مرّات عديدة. عندئذٍ فهمتُ. هما لم يرغبا في مجيئي مع كام لأنّها تحسّن طباعي، بل أرادا منّي إحضارها لتحويل انتباه دائرتهم المتغطرسة عنّي، لأنّني، أنا، لم أقم بدراسات عليا، ولن أحصل على لقب. لن يدعوني أحد يوماً بالأستاذ ألار، أو الدكتور ألار، أو النقيب ألار. لن أكون أكثر من مكسيم، ماكس، الشابّ الذي لم يستطع أن يعلو عن الوسط يوماً. لو كنّا في قبيلة في أفريقيا، لرسبتُ في طقوس التلقين، ولرفضتُ قتل الحيوان، ولأصبحت أضحوكة القبيلة. هذا المساء، كنت وحيداً. حتّى كام لا تنتمي إلى عصبتي أو لن تنتمي إليها طويلاً. يوماً ما، سيكون مُرحّباً بها في أوساط والدَيّ بقدر ما هو مرحّب بها في عصبتي. يوماً ما، ستصبح واحدة منهم. فكام لم تكن عادية يوماً، ولم يبقَ سوى أن تدرك هذا الأمر هي نفسها، لأنّ بقية العالم يعرفون أساساً. وفي اليوم الذي سيحدث فيه ذلك، سيكون عليّ أن أنساها.

هذه الفكرة جعلت الدم يغلي في عروقي. فجأة، بدت الغرفة صغيرة جدّاً عليّ وشعرت أنّ جدرانها تطبق على صدري. فرميت منديلي على الطاولة، ونهضت بهدوء عن مقعدي. لم أشأ التسبّب بأيّ إزعاج، ليس لعدم إحراج والديّ، بل لأنّني لم أرغب في شرح نفسي. كنت بحاجة فقط إلى أن أكون في مكان ليسوا فيه.

ذهبتُ إلى الباب بخطى واسعة ولم أتباطأ حتّى عندما نادوا والدي للصعود على خشبة المسرح. شعرت بنظرته الغاضبة والخائبة، وبنظرة والدتي الساخطة، وكذلك بنظرة كاميل القلقة. ثقبت نظراتهم في عنقي فجوة بحجم مانيتوبا وأنا أغادر الغرفة قبل أن يسقط كلّ هذا الزخرف على رأس الشابّ المسكين غير المميّز.

كام

عندما رأيت ماكس ينهض عن الطاولة، عرفت على الفور أنّه لا ينوي العودة. مكثت إلى أن ألقى والده الجزء الأوّل من خطابه. وما إن توقّف لشرب بعض الماء، حتّى تسلّلت خارجة من القاعة. بحثت عنه في الردهة، لكن سرعان ما أدركت أنّه ليس هناك. فخرجت إلى الشرفة الواقعة في الجزء الخلفي من الفندق الكبير. لفحت وجهي الرياح ما إن خطوت إلى الخارج، فندمت على الفور على كتفيّ العاريتين والشقّ في مقدّمة ثوبي. لكن في تلك اللحظة، رأيت ظلّ ماكس في البعيد متّكئاً على الدرابزين.

انضممت إليه، واتّكأت على الدرابزين بدوري، وألصقت كتفي بكتفه، لدعمه ولأدفّئ نفسي أيضاً. وللحظة، رحنا نتأمّل بصمت جزيرة دورليان، التي تتألّق في البعيد. ليفيس يميناً، وكيبيك يساراً، والنهر مثل هاوية مظلمة وسط أضواء الليل.

قلت بعد لحظة: «هذا جميل».

لم يجب بشيء. كان ينظر إلى الأمام مباشرة، شفتاه مشدودتان ونظرته باردة مثل الرياح التي تهبّ علينا.

«ماكس؟».

«لطالما عرفت أنّني أسبّب لهما الخيبة».

«ماذا؟».

«لقد خيّبت ظنّهما باستمرار. فأنا لست مجتهداً، أنا متقلّب، لا أحبّ العلوم، وفاشل كبير. لطالما كنت فاشلاً كبيراً».

«ماكس...».

«حقّاً، أنا أعرف ذلك، لا بأس. إنّه خطأهما إلى حدّ ما على أي حال. والأسوأ من ذلك، أنّني أتعايش جيّداً مع هذه الفكرة عادة. لكن هذه الليلة، معك أنت، كان هذا كثيراً».

تلقّيت هذه الكلمات الأخيرة كالصفعة، فابتعدت قليلاً عنه.

«ما قصدك، معي أنا؟».

«ستصبحين مثلهم يوماً ما».

«ولكن ما الذي تتحدّث عنه؟».

التفت ونظر إليّ، إلى عينيّ مباشرة، بتلك النظرة الباردة التي وجّهها إلى النهر قبل لحظات. فشعرت أنّني تجمّدت في مكاني.

«لطالما أعجبت بحقيقة أنّك تعيشين بشغف، على الرغم من الدراسات وكلّ ما هو ثابت لديك. واعتقدت أنّك ستلاحقين حلمك حتّى النهاية، أعني الكتابة. ظننت أنّ كلّ الباقي كان مرحلة مؤقّتة، أو على الأقلّ، أنّك تشاركين في هذا العالم، ولكن من دون أن تكوني جزءاً منه حقّاً. لكن هذه الليلة، استطعت أن أرى بوضوح أنّك تنسجمين معهم في العمق... ويوماً ما، ليس غداً، وليس الأسبوع المقبل، ولكن في غضون بضع سنوات، ستصبحين مثلهم، أنفك في السماء لدرجة أنّك لن تري الشبّان المساكين أمثالي الذين ينتظرون في الأسفل».

فغرت فاهي دهشة بعد هذه الاعترافات غير المتوقّعة. لطالما عرفت أنّ ماكس يعاني من عقدة تجاه الأهداف التي حدّدها له والداه من دون حتّى أن يسألاه عن رأيه، لكنّني لم أعرف أنّه كان يُشركني في ذلك. والذهول الذي جمّدني للحظة سرعان ما تلاشى بفعل الغضب العارم الذي راح يعتمل في صدري.

«أنت لست عادلاً معي يا ماكس».

حاولت أن أحافظ على هدوئي، على الرغم من كلّ شيء، لأنّني أعلم جيّداً أنّ الهجوم عليه لن يفلح في إعادته إلى المنطق. هزّ كتفيه مجيباً:

«ألم يخبرك أحد أنّ الحياة غير عادلة؟».

«لا تعطِني جملاً جاهزة كهذه».

«ألم يعجب مستوى الحديث السيّدة؟».

أنا عادة قليلة الصبر، وهذه الليلة عرف تماماً كيف يشعل غضبي. فموقفه البارد والساخر تغلّب على حسن نيّتي، وهكذا انفجرت غاضبة.

«حسناً، هذا يكفي! إذا كانت لديك مخاوف بشأن والديك، فالأمر يعود إليك، وأنت تعرف جيّداً أنّني لطالما كنت موجودة من أجلك، كلّما احتجتَ إلى مضايقتهما! أنت تعلم أيضاً أنّني لا أكترث لما يعتبرانه مهمّاً! لذا، كفّ عن محاولة البحث عن خطب بي أنا...».

«حسناً، كفى!».

«المعذرة؟».

«قلت كفى! بإمكانك أن تتهمّيني بكثير من الأمور، والله يعلم أنّني تقبّلت ذلك على مرّ السنين، لكن أن تتّهميني أنا، بمحاولة البحث عن خطب بك؟ أعتقد أنّه عليك أن تنظري إلى المرآة يا فتاة، إذ يبدو أنّك لم تري نفسك بوضوح منذ أسابيع! وعندما أقول أسابيع، أكون كريماً جدّاً».

«عمّ تتحدّث؟».

«أنا أتحدّث عن جميع الأسباب التي تحاولين إيجادها عبثاً لكي لا تكوني معي، لمحاولة إخفاء حقيقة أنّك، بعد كلّ هذا الوقت، ما زلت لا تثقين بي!».

«هذا ليس صحيحاً يا ماكس...».

«انظري إليّ. انظري إلى عينيّ وأقسمي أنّك تثقين بي. وإلّا، فأخبريني أنّك لا تريدين أن تكوني معي، ولكن قرّري. أنا متعب يا كام، لقد طالت هذه القصّة طويلاً، وأصبحَت مرهقة جدّاً».

ابتعدنا عن بعضنا خلال هذا الشجار. شعرت بغصّة في حلقي، وبالخدر في ذراعيّ من شدّة البرد. كانت دموعي على وشك الانهمار، لكنّني لم أعرف ما إذا كان ذلك بسبب الحزن أو الغضب أو الرياح. ربّما قليل من الثلاثة. سألني ماكس بنظرة قاسية:

«إذاً؟».

أخذت نفساً عميقاً (وكان هذا صعباً بسبب الثوب) قبل أن أجيب.

«سبق وأخبرتك يا ماكس. لست أنت من لا أثق به، بل نحن... أنا أخشى أن نفسد كلّ شيء. فنحن لا نجيد الحفاظ على العلاقات، لا أنت ولا أنا».

تجهّم ماكس وهو يسمع كلامي.

«هذه مجرّد أعذار سخيفة».

«بل هي حقائق. انظر إلى حياتك العاطفية، وانظر إلى حياتي».

«هذا مختلف».

«وبماذا يختلف؟».

«نحن المعنيّان هذه المرّة».

«من السهل قول ذلك».

«أنت مخطئة، هذا ليس سهلاً. أن نغضب، ونبتعد، ونتجنّب التفكير في الأمر... هذا ليس سهلاً. وهذا ما فعلناه دائماً نحن الاثنان. كم مضى علينا على هذه الحال؟ أربع سنوات؟ هذا جنون... كلّ هذا الوقت الضائع!».

«لم يكن وقتاً ضائعاً».

«لا، حسناً. ربّما لم يكن وقتا ضائعاً، بل مهدوراً».

خطا خطوة نحوي، فشعرت بكلّ التصميم النابع منه. في الواقع، لم يسبق لي يوماً أن رأيته على هذه الحال.

«وأنا أعلم أنّني جزء من المشكلة. فأنا أتخبّط في جميع مجالات حياتي اللعينة، أعطي دائماً الحدّ الأدنى، لا أكثر. لطالما سلكت الطريق الذي يتطلّب أقلّ قدر من المجازفة، ولكن ليس بعد الآن يا كام، ليس بعد الآن. لمرّة واحدة في حياتي، لا أريد أن أختار الطريق السهل».

لم أجب بشيء، بل بقيت مصغية إليه. فأضاف بعد قليل:

«أنا جادّ. صدّقيني يا كام، لقد اتّخذت قراري. والآن حان دورك. إن كنت لا تريدين أن تكوني معي، أخبريني الآن. أريد أن أسمعك تقولينها، وإلّا فلن أصدّق».

«ماكس...».

«هيّا، قرّري».

مرّر يده الغاضبة عبر شعره ولحيته. فنظرت إليه، وأردت أن أتشبّث به كما لو كنت أغرق في النهر، وأن أقاوم التيّار الذي يجرفني بعيداً. أردت أن أتعلّق به كما يتعلّق الغريق بطوق النجاة. فقرّرتُ أخيراً أن ألقي بنفسي في المجهول.

«حسناً، قبِلت».

«ماذا؟».

نظر إليّ غير مصدّق، فشعرتُ وكأنّني دمية تمّ قطع خيوطها للتوّ. كلمة واحدة صغيرة كانت مفتاح الخلاص. ابتسمت بزاوية فمي وكرّرت قائلة:

«قلت لقد قبلت يا ماكس، قبلت».

شعرت أنّ الوقت توقّف بيننا لثانية أو ربّما إلى الأبد. بعد ذلك، اجتاز بخطوتين المسافة التي تفصل بيننا وعانقني بقوّة. كانت تلك الطريقة الوحيدة لوصف ذلك. لم يكن عذباً ولا رومانسياً، بل أشبه بالصدمة، أو بحالة طوارئ. فلففت ذراعيّ حول عنقه وجذبته نحوي، كما لو كنت أسحبه بعيداً.

لم يعانقني عناق اشتياق، بل عناق شخص يظنّ أنّه لن يعيش لثانية أخرى إن لم يفعل ذلك.

يبدو الأمر متشابهاً، ولكن بين الرغبة والحاجة ثمّة بحر من الاختلاف.

ماكس

استغرق الوصول من قصر فرونتوناك إلى شقّتي تسع دقائق بالسيّارة. وكانت الدقائق التسع الأطول والأقصر في حياتي.

تسع دقائق بدون تنفّس، كان هذا طويلاً بشكل لا يصدّق. أمّا تسع دقائق من عناق كاميل، فهذا قصير بشكل لا يصدّق. والوقت ذاتيّ من هذا المنظور. ألقيت عشرين دولاراً لسائق سيّارة الأجرة وسحبتُ كام إلى خارج السيّارة.

كافحتُ لفتح البوّابة ووجدنا صعوبة في صعود الدرج، كما فقدَت فردة حذاء في أثناء ذلك. ضحكنا قليلاً، ولكن ليس بصوت عالٍ، إذ لم يكن من السهل علينا أن نضحك حقّاً. وشعرت أنّه عليّ أن أتغلّب على ألف عقبة قبل أن أدخل منزلي أخيراً.

هناك، احتوتني كما يحتوي بحر دافئ أسعدَ المسافرين.

كام

يغمر ضوء الشمس الساطع شقّة ماكس في الصباح عندما يتسلّل إلى الغرفة عبر النوافذ المكشوفة. كثيراً ما أشكو من ذلك. فهذه ليست المرّة الأولى التي أنام فيها في منزل ماكس، بعد أمسية أقضيها معه. ليست المرّة الأولى التي أستيقظ فيها في هذا السرير، ويبهرني ضوء الشمس، قبل أن أغمر وجهي بالوسادة، وأنام ووقد مددتُ إحدى ساقَيّ فوق الغطاء من شدّة الحرّ. غير أنّها المرّة الأولى التي أمكث هنا كحبيبته.

كان ماكس لا يزال نائماً، وعرفت ذلك من تنفّسه البطيء والعميق بالقرب من أذني. كانت ذراعه الملقاة على خصري ثقيلة ولكنّها ليست مزعجة. لطالما كان الصباح الذي يلي ليلة أقضيها مع رجل اختباراً بالنسبة إليّ. إذ يمكن أن تكون الذراع ثقيلة، ولكنّها مريحة، أو أن تكون مزعجة وبغيضة. قد يكون تنفّس الشابّ قوياً أيضاً، أو يكون قد تعرَّقَ أثناء النوم، وقد تبدو بشرته أقلّ جمالاً في ضوء النهار.

كنت خائفة قليلاً، وأنا أستيقظ هذا الصباح بجوار ماكس، من أن أجده أقلّ وسامة بقليل. فقد خشيت أن أجده ضخماً جدّاً، أو شديد الحمرة، أو مختلفاً. كنت أخشى أن أفتح عينيّ على هذا الواقع الجديد، الذي لم يعد بإمكاننا أن نتظاهر فيه أنّنا مجرّد صديقَين، وأن أندم على كلّ شيء. غير أنّني تجرّأت في النهاية، وألقيت نظرة من فوق كتفي، لأجد أنّ ماكس ما زال ماكس، حتّى في ضوء الشمس، وحتّى في الصباح التالي لليلتنا الأولى. فشعرتُ بارتياح لا يوصف وأنا أراه تماماً كما عرفته.

استيقظَ الآن، ولا بدّ أنّه شعر بي وأنا أتحرّك، لأنّه ضمّني إليه بقوّة أكبر، فابتسمت. تمتم قائلاً: «ما الذي يضحكك؟».

«وكيف عرفت أنّني أبتسم؟».

«أنا لم أقابلك بالأمس، وأعرفك قليلاً».

اتّسعت ابتسامتي.

«لم تقابلني بالأمس؟ أوه، هذا مخيف...».

«جبانة».

«كثيراً ما يقال لي ذلك».

«كاذبة».

ضحكتُ واستدرت نحوه. شعرت بالغرابة لقربي منه إلى هذا الحدّ، وتوتّرت كما لو أنّ جسدي يتساءل ما إذا كان من الصحيح الاستفادة من هذا التقارب. مرّرت يدي في شعره، فنظر إليّ مبتسماً، وتألّقت عيناه الخضراوان من خلال رموشه. سألته بجدّية أكبر: «أليس هذا غريباً بالنسبة إليك؟».

«بصراحة؟».

«كلّا، اكذب عليّ».

«ليس غريباً. كلّا، غريب ليست الكلمة المناسبة... أنا أشعر كما لو كنت أقود درّاجتي للمرّة الأولى».

«لا أعرف حقّاً كيف أفهم ذلك».

«مهلاً، سأشرح. أعطني ثلاثين ثانية».

أغمض عينيه قليلاً وهو يفكّر.

«لطالما عرفت... لطالما عرفت أنّني أريد ذلك، ولكنّني كنت خائفاً. فثمّة جزء منّي تساءل دائماً ما إذا كان ذلك صحيحاً».

فكّرت في إجابته بينما كانت يده ترسم خطّاً غير مرئي على عمودي الفقري، وهذا ما جعل التفكير أكثر صعوبة.

«لشعرتُ بالقلق لو لم تكن خائفاً».

«ولماذا؟».

«لأنّ خوفنا يعني أنّنا متمسكّون بشيء ما».

«صحيح».

نظر مباشرة إلى عينيّ قائلاً: «أنت تعرفين أنّني متمسّك بك. فقصّتنا لم تبدأ بالأمس ولا هذا الصباح».

«هذا مختلف».

«هذا ليس مختلفاً جدّاً».

«صحيح».

«وأنت... أما زلت خائفة؟».

«بالتأكيد».

«ممَّ؟ أمِن...».

تردّد، فشجّعته قائلة: «نعم؟».

«كلّا، لا شيء».

«ماكس...».

تنهّد، وكان وجهه لا يزال قريباً من وجهي. عندما نظر إليّ، تمكّنت تقريباً من قراءة أفكاره.

«لم أكن دائماً رجلاً جيّداً، لم أكن صادقاً دوماً».

«معي؟».

«مع النساء».

«ولكن معي؟».

عرفتُ من وجهه أنّه فهم. أدرك أنّني أعلم أنّه يتحدّث عن فلورانس، وعن المرّات التي خانها فيها، وأنّني أختار عدم ركوب القارب نفسه. أختار أن أصدّق أنّ الأمر سيكون مختلفاً بيننا.

«الثقة هي أيضاً اختيار. أنت تعلم أنّني أخشى كثيراً من الأمور يا ماكس، طوال الوقت، ولكنّني لا أخشى ألّا تكون رجلاً صالحاً معي. لم يكن هذا يوماً أحد مخاوفي، وبالتأكيد لن يتغيّر ذلك الآن».

فتح فمه ليقول شيئاً، ولكنّني لم أمنحه الوقت للردّ. كنّا بطيئين في اتّخاذ القرار، لكنّني أدرك الآن أنّ الجزء الأصعب مضى.

نحن نقضي حياتنا في البحث عن التعقيد، في حين أنّ البساطة هي التي تمنحنا السعادة.

ماكس

لم أفهم يوماً الأشخاص الذين يقولون إنّهم يستطيعون البقاء مع شخص ما طوال اليوم. ربّما أكون مفرط النشاط بعض الشيء، لكن عادةً ما أضيق ذرعاً من البقاء في السرير ولا أطيق الانتظار لرحيل ضيفتي.

هذا الصباح، مع كام، فهمتُ أخيراً. فقد اكتشفت متعة البقاء هناك بجانبها لساعات وساعات. مجرّد وجودها كان كافياً.

اهتزّ هاتفي الخلوي على المنضدة المجاورة للسرير، مسبّباً ضجيجاً صاخباً في شرنقتنا التي ملأناها بالهمسات. رأيت اسم والدتي يظهر على الشاشة، وتخيّلت أنّها تريد أن تلقي عليّ محاضرة حول خروجي المبكر الليلة الماضية، فتجاهلتها. لا أريد أن تفسد عليّ كلّ شيء، لا سيّما اليوم. اقتربت منّي كام، واحتضنتها مجدّداً. لم أعرف الحبّ على حقيقته قبل الآن. فبالنسبة إليّ، لطالما بدا لي الأمر رقيقاً جدّاً، لكنّني أفهم الآن أنّ ما يحدّد الحبّ هو الشعور الذي ينتاب المرء عندما يعانق حبيبته، والقدرة على النظر إلى عينيها من دون كلل، والسعادة التي تتضاعف عشرات المرّات عندما يراها سعيدة هي أيضاً. لم أكن يوماً أنانياً في علاقاتي، لكنّني لم أرغب يوماً في منح الآخر السعادة كما رغبت هذا الصباح، مع كام. وأعتقد أنّ هذا هو الحب. هكذا يجب أن يكون، على أيّ حال، وأظن أنّ كثيراً من الرجال كانوا سيرغبون في تجربته.

همست كام عندما استعدنا أنفاسنا قليلاً: «أنا مرتاحة هكذا».

«أنا أيضاً».

في تلك اللحظة، قرقرت معدتها بصوت عال، مثل صرخة احتجاج حادّة، فانفجرنا ضاحكَين.

«حسناً، كفانا كلاماً حلواً، فقد بدأ جسدي بأكل نفسه».

أعلم أنّها لا تريد حقّاً انتهاء هذه اللحظة بيننا، ولكنّني أردت النهوض أنا أيضاً وارتداء ملابسي وهي تراقبني بسعادة، وأنا أعلم أنّني المسؤول عنها. كنت سعيداً أيضاً لأنّها ما زالت تشبه نفسها، تطلق النوع نفسه من النكات، وتحافظ على شيء من سخريتها. فقد خشيتُ أن يتغيّر ذلك بعد هذه الليلة. إذ دائماً ما يقال إنّ الأشياء تتغيّر عندما نحبّ بعضنا. ربّما لن يتغيّر شيء لأنّنا كنّا نحبّ بعضنا أساساً، أو ربّما تغيّرت أشياء ولم نلاحظها بعد.

نهضت كام بدورها وارتدت سروالاً قطنياً قديماً كانت قد تركته في منزلي بعد أن بلّله المطر وهي عائدة من جامعتها. ارتدت فوقه إحدى قمصاني القطنية التي بدت أنّها تتّسع لخمس فتيات بحجمها.

«أنت جميلة».

«أنا أبدو مثل متسوّلة».

«ليس ما ترتدينه، بل ما أنت عليه».

«كم أنت سخيف».

أجابتني وهي تنظر إلى الأعلى، ولكنّني رأيت خدّيها الورديَين أساساً يتوهّجان. فقط لولا أنّ معدتي كانت تحتجّ هي الأخرى. صبراً يا ماكس، سيكون ثمّة ليالٍ أخرى وصباحات أخرى.

«نعم، ولكن اليوم لديّ الحقّ في ذلك».

أجابت مبتسمة: «حسناً، اليوم فقط».

«وربّما غداً أيضاً».

«أنت تتمادى، ولكنّني لطيفة اليوم أنا أيضاً. غداً أيضاً بالتأكيد، ولكن ليس أكثر، مثلاً...».

«اتّفقنا، يومان من السخافة».

عندما دسست هاتفي في جيبي، بدأ يهتزّ مجدّداً، فتنهّدتُ مستاءً.

«لا تكفّ أمّي عن الاتّصال. أعتقد أنّه اتّصالها العشرون».

«أجبها إذاً».

«ليست لديّ الرغبة في ذلك».

«أنت تعلم أنّك لن ترغب في ذلك أبداً».

«هذا يناسبني».

«ماكس...».

«لست راغباً في الحديث معها حقّاً».

«وإذا دفعتُ ثمن حصّة إضافية من اللحم المقدّد في المطعم؟».

«هل تقبلين الزواج بي؟».

«ليس الآن».

علت وجهي ابتسامة عريضة وأنا أجيب. ولم أستغرب عندما صبّت عليّ أمّي جام غضبها. كان ذلك غريباً، لا بل وكوميدياً تقريباً لو لم تكن غاضبة إلى هذا الحدّ. أمّا أنا فكنت أفكّر في اللحم المقدّد وفي كام وكلّ ما يذيب قلبي في هذه اللحظة، ولم أدرك حتّى ما حدث عندما أغلقت أمّي الخطّ.

ربّما كان هذا هو الحبّ ببساطة. تمطرنا الحياة بمئات المشاكل التي تسبّب لنا القلق، وتثقل كاهلنا، وتدمّرنا أكثر بقليل يوماً بعد يوم. ويكون الحبّ الدرع الواقي من مطر المشاكل اليومية.

حسناً، هذه الصورة ليست رومانسية جدّاً، ولن أكرّرها لكام، لأنّها ستجدها بالغة السخافة. لكن سواء كانت رومانسية أم لا، فالأمر سيان. على أيّ حال، هي تعلم أساساً أنّني أحمق، وتحبّني على الرغم من كلّ شيء. قد لا أكون طبيباً أو محامياً، ولكن ما أعرفه أنّني، في هذه اللحظة، أكثر

الرجال حظّاً على وجه الأرض. هذا ما قد أخبرها به. ستجيب أنّني عنيد وسخيف، وستستخدم بالتأكيد كلمة أخرى لا أعرفها. ستقول لي هذا الكلام وهي تحمرّ خجلاً، وسيسرّها ذلك. ولن أتخلّى عن هاتين الصفتين في وقت قريب. فقد حان الوقت لأدرك أنّني لست بحاجة إلى أكثر من ذلك لأكون سعيداً.

هذا لأنّ كام أفضلُ صيدٍ وقع في شباكي. حتماً، سيقول والدها إنّني أحسنت فعلاً، فقد أخذتُ وقتي.

معلومات عن المؤلفة

ماري كريستين شارتييه شغوفة بالكتابة. فبالإضافة إلى عملها ككاتبة لمنصّات عدّة، قامت بتأليف أربع روايات نشرتها دار Hurtubise ولاقت جميعها نجاحاً باهراً: L’allégorie des truites arc-en-ciel (2018) (سمكة قوس قزح)، Tout comme les tortues (2019)، Le sommeil des loutres (2020) وLa floraison des nénuphars (2021). وهي حاصلة على درجة الماجستير في علم النفس من جامعة لافال، كما لعبت التنس على مستوى عالٍ في الولايات المتّحدة لمدّة ستّ سنوات. واليوم، تكرّس نفسها للتصوير الفوتوغرافي.